نيام بلا مضاجع

ثروت أباظة

نيام بلا مضاجع

تأليف
ثروت أباظة

هنـــداوي

نيام بلا مضاجع

ثروت أباظة

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ١ ٣٤٠٢ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ ثروت أباظة.

المحتويات

القارعة	٧
فلا دنيا ولا آخرة	١١
ولا حتى جاهلية	١٥
حيرة ...؟!	١٩
بهلوان في لوزان	٢٣
لا يغلب ظلمٌ حقًّا	٢٩
قصة لم أصنعها	٣٣
كان الله في عون التاريخ	٣٧
المنافق الشجاع	٤١
ومن الهدم بناء	٤٥
لا بد للمد أن ينحسر	٤٩
نيام على غير مضاجع	٥٣
لا بد لها من وقود	٥٧
أغريب أنا إذَن	٦١
جاهلية جديدة	٦٥
الله ... الله فيما تكتبون!	٦٩
الثور المذءوب!	٧٣
المحافظات وفلسفة الإعلان	٧٧
أعزك الله يا عزة	٨٣
إلى هؤلاء وحسبي هُم	٨٧

لا عجب ٩١
ويل للصِّغار من الصَّغار! ٩٥
كرامة ومال ٩٩
يا ليتها كانت إجازة ١٠٣
من طوايا الحياة ١٠٧
الذكرى ذات نفع عميم ١١٣
الله خير الماكرين ١١٧

القارعة

في شارع من أكبر شوارع الزمالك رجل في الحلقة الخامسة من عمره يقف في جدية واضحة يُشير للسيارات لتسير، أو يُشير لها أن تقف، وعلى مبعدة خطوات منه يقف شرطي المرور، ولكنه لا يحفل به ولا يكترث به، وكأنه غير موجود.

والرجل مقتنع كلَّ الاقتناع أنه لولاه لتوقفت حركة المرور في الشارع، وهو واثق أنها إذا توقفت في الشارع توقفت في القاهرة كلها، وأحسب أنه على يقين أن هذه الحركة إذا توقفت توقف العالم عن الدوران، وكفَّت الحياة عن الحياة.

وتنظر إليه فتُدرك أنه مقتنع غاية الاقتناع أنه لولا يده التي يُشير بها للسيارات أن تسير ما سارت، وأن هذه السيارات بسَيْرِها تسير الأيام جميعًا. وأحسده؛ فقد اطمأن إلى أهمية وظيفته في الحياة، وارتاح إلى طمأنينته، غيرَ حافلٍ شأنَ الناس جميعًا، اقتنعوا بالحقيقة الثابتة في يقينه أم لم يقتنعوا.

وما قيمة رأي الناس ما دام هو واثقًا من حقيقة العمل الخطير الذي يقوم به. وأحسب أنه لو كان على إلمامه بالشعر لوضع لافتة فوق رأسه تحمل بيت المتنبي الخالد يردُّ بها على نظرات الراجلين والراكبين على السواء، ويتحدى بها علامات الاستغراب التي ترتسم على وجوه البشرية في الشارع الذي يحرِّك منه الكون جميعًا:

وهكذا كنتُ في أهلي وفي وطني إن النفيسَ غريبٌ حيثما كانا

أما الرجل فواضح المعالم، والحقيقة من أمره لا شك فيها ولا اختلاف حولها؛ لأنه يعرض أمر نفسه على الناس أجمعين، وكلهم واثق من حقيقته، وبعضهم يشفق عليه وتأخذه به تلك اللمسة السماوية التي أودع الله منها قبسًا في ضمائر بعض الناس. فإذا

قُدِّر لك أن تقف بعض الحين تراقبه لرأيت ثَمَّ يدًا تمتد إليه من حين إلى آخَر تمنحه همسة من رحمة متمثِّلة في مبلغ من المال، الله وحده يعلم مقداره.

ويأخذ هو ما تمنحه له السماء في كبرياء صاحب الحق، يتسلَّم حقه، ويرفع يده بتحية فيها إباء، ويستأنف عمله من إدارة حركة الكون.

هذا رجل — فيما أقدِّر — مرَّت به ألوانٌ من تقلُّبات الحياة، وخاضَ غمرات الأمواج حتى وجد شاطئه في مكانه هذا، والتمس عنده مأمنه من الحياة، فأمن واستقرَّ. والتقط اللاهث من أنفاسه المفزعة، وتصالح مع الحياة، ووثق أنها تصالحت معه، فهو لا يسيءُ إلى أحد، ولا يعبأ بمَن يحاول أن يسيء إليه، وإنما ينصرف عنه انصراف الكبار عن لهو الصغار.

تُرى كم في حياة الناس من أمثال هذا الرجل ولا يعرف الناس عنهم شيئًا؟! تسترهم الحجرات، ويتخفون وراء غلالات رقيقة من عِلم ساذج استطاعوا بها أن يستخفوا عقول الكبار، ويجعلوهم يتوهمون أنهم أصحاب ثقافة، أو أصحاب علم، أو أصحاب دراية، وهم من هذا جميعًا أبرياء. وحين يتزاوج الغرور من الضائعين بالجهل ممَّن يملكون تقسيم الوظائف يثب إلى الكراسي أمثال هذا الرجل الواقف في شارع من شوارع القاهرة.

أما هو فمجرَّد من السلطان مقصيٌّ عن إصدار الأوامر، وأما هم فبيدهم أدوات يملكون بها أن يصدروا الأوامر، أو يصدروا الأحكام في شئون الحياة. وفي الميدان الذي أعمل فيه أرى رأي العين مَن يحسب نفسه أديبًا لم تجُد بمثله الأزمان في قديمها وحديثها، وأراه رأي العين شأنه شأن المسكين الذي يظن أنه يدير الكون من شارعٍ في القاهرة يظن أنه لولاه ما وُجِد الأدب العربي كله.

والأدب ميدان قاسٍ عنيف لا يقبل الهزل، ولا يعترف بالدجل، ولا بد للأديب من إنتاج، ولا بد أن يكون هذا الإنتاج منفردًا حتى يبدأ الأدب في تقويم هذا الأديب، وإلقاء النظر إليه، والحكم عليه إن كان يستحق أن يكون أديبًا أو لا يستحق.

أما هؤلاء الذين اطمأنوا إلى مكانتهم الأدبية فأنا أعرف بينهم مَن ليس له إنتاج على الإطلاق، وأعرف منهم مَن له قصة قصيرة، أو بعض أقاصيص لا تزيد على أربع أو خمس.

ولكن هؤلاء الأصدقاء يملكون أن يرموا بهم إلى كراسي مناصب، فإذا هم في وقاحة، أو إن شئت الكلمة الدقيقة فقل في فجور، يُطلِقون أحكامهم الجامعة المانعة على الجبال الرواسي والقمم الشامخات، ولا يحاول واحد منهم أن يسأل نفسه: ماذا قدمتُ أنا حتى

أحكم على الآخَرين؟! ولكن النفس مولعة بخداع نفسها، وهذا السؤال لا يرِدُ على تفكيره ... وهل هو صاحب تفكير حتى يرِدَ عليه سؤال؟

لقد حكم وحكمه نهائي بلا حيثيات، وبلا معارضة ولا استئناف؛ لأنه مثل الرجل الذي يحرِّك الكون، ولا يحفل بشأن الناس، وليس يعنيه أن يقولوا عنه: فاجرٌ يدَّعي لنفسه ما ليس له، ويضع ذاته في المكان الوحيد الذي ينبغي له أن يختفي منه.

أما الرجل الذي يحرِّك المرور والكون فقد استمدَّ وظيفته من طغيان الأيام عليه، ومن قسوة الزمان على مجرى حياته، ومن عنف المقادير بإنسانيته.

أما هؤلاء الآخَرون فقد خادعوا أنفسهم، ووجدوا من المهازيل من يقبل أن يكون مخدوعًا، فتصدوا للحكم على الناس، ووجدوا كلامهم يُجمع ويُطبع ويُنشر على الناس.

أيُّ زمان قدَّر الرحمن أن نعيش فيه حتى نرى ما نراه؟ فنشهد الطَّيب الأخرس، والعالم الجاهل، والأديب بلا أدب له، والشاعر ولم يقُل شعرًا، والناقد دون قراءة ما ينقده، وإذا تركنا الأدب وألقينا نظرة إلى شتَّى مناحي الحياة وجدنا كثيرًا من مناطق النفوذ يسودها الظلام القاتم حين كان ينبغي لها أن تكون حافلة بالنور، وإذا أنت حملت مصباحًا وألقيت النظر على شاغليها لوجدتهم جميعًا من هؤلاء الذين نصبوا أنفسهم في مناصب قد تصلح لأي إنسان إلا لهم، والجريمة ليست جريمتهم وحدهم، وإنما هي جريمة فيها شركاء عديدون. والشريك في القانون يعاقب بعقوبة الفاعل الأصلي، أما الشريك في هذه الجرائم فهو في الحقيقة الفاعل الأصلي، والعقاب واقع عليه أولًا، ثم هو واقع على مَن ولَّاهم ما لا يستحقون من رأي الناس، ثم هو واقع عليهم وعلى غيرهم من الاضطراب والمهازل والفوضى التي تسود مواقعهم، وتسخر منهم كل سخرية، وتحقر شأنهم كلَّ احتقار ... ويومئذٍ تكون القارعة وما أدراك ما القارعة ... إن أمه لا شك يومئذٍ هاوية، وما أدراك ما هيَ؟

اللهم يا ذا الرحمة والعدل، ويا مالك الميزان حين ينعدم الميزان، إليك وحدك نضرع، وبك وحدك نستجير ... سبحانك.

فلا دنيا ولا آخرة

أليست الخيانة والطغيان والمجازر والحروب والاعتداء على الحياة وتمزيق البشرية كلها كانت وليدة الطمع والجشع ورغبة الإنسان اللاهبة المحرقة أن يحصل على المال والسلطان، وكلما بلغ منهما إلى مكان تطلَّع إلى المكان الذي يعلوه، فالإنسان جشِع بطبعه، وقلَّ منهم القنوع، ومَن أدرى بالإنسان من بارئه وهو سبحانه يقول: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ ... وليس هناك حدٌّ لجشع المال، فالأرقام لا تنتهي، وما دام المال قد أصبح غاية لا وسيلة عند مخلوقٍ ما فويل لهذا المخلوق من نفسه؛ فهو لا يبحث عن المال ليردَّ عن نفسه وبَنيه غائلة الحاجة، وإنما هو يستزيد من المال لذات المال، وحينئذٍ لن يقف به اللهج والجهد عند أمدٍ ينتهي إليه.

وليس هناك حدٌّ لجشع السلطة؛ فكلما بلغ الإنسان الكنود منها قدرًا راح يبحث عن سلطة جديدة وهو لا يريدها لإصلاح شأن مَن تسلطنَ عليهم، وإنما يبحث عنها لتحقيق ذاته، فإن لم يصل بالطريق المشروع — وهو لن يصل به فالطريق المشروع لا يُعطي السلطة المُطلَقة لأحدٍ أبدًا — خان، وإنْ خان الأقربين، وقتل، وإنْ قتل الشعوب، وطغى وتجبَّر وألغى الضمير من حياته، فأصبح شرًّا من الحيوان.

فالحيوان لا يقتل إلا حين يجوع، يريد أن يسد جوعه، أو حين يخاف، يريد أن يأمن. أما السلطان الطاغية فهو يقطع الرءوس ليجعل منها سُلَّمًا إلى سلطانه، أو يقطعها إذا كانت تفكِّر وهو لا يسمح لأحد غيره أن يفكِّر، أو هو يقطعها لأنه يخشاها، حتى وإن كانت خشيته مجرَّد وَهْم لا يؤِّيده برهان، ولا يقوم عليه دليل، فالخوف في أغلب أمره لا منطق له، والسلطان الخائف ذئب مسعور.

والعجب العجيب أن الإنسان يصنع هذا جميعه وهو على ثقةٍ لا مجالَ فيها لشكٍّ أنه ميت لا محالة، وهو على ثقة أيضًا أنه عندما يموت لن يصحب معه مالًا ولا سلطانًا،

بل هو سيصحب معه — لا شك — ما ارتكب من آثام وجرائم في سبيل هذا المال وذلك السلطان. وكلما ازداد ماله زادت آثامه، وكلما طغى سلطانه تزاحمت جرائمه.

وفي الناحية الأخرى من الحياة لن يكون في حاجة إلى المال، بل إن ماله سيكون وبالًا عليه، فتُكوى به جباههم وجنوبهم، ويشقون به شقاءً جسيمًا، فلا هو استمتع بالمال في الدنيا واعتصر منه ما يعتصره منه أولئك الذين يرون في المال وسيلة لا غاية، طريقًا لا هدفًا، ولا هو جعل منه مفازة في آخرة كريمة؛ فتصدَّق به وأحسَّ تلك المتعة الفريدة التي يحسها المحسن حتى لأحسب أن الله بهذا الإحساس قد وهب له كلَّ المكافأة التي وعده بها، ولا هو ظفر بالآخرة، بل إنه واجدٌ هناك ماله ينتظره ليكون عليه نارًا لاهبة يكتوي بها.

أما صاحب السلطان فهو ملاقٍ وبالًا أشدَّ وعذابًا أنكى؛ فقد خاض بسلطانه، وفي سبيل سلطان جديد، بحورًا من دماء، وأهوالًا من أرواح، وداسَ بقدمَيه كرامات ناس وأمنهم وطمأنينتهم، واعتدى على معنى كلمة الإنسان الذي كرَّمَه الله وفضَّله على العالمين.

وقد يقول قائل: ويحك قد ابتعدت عن المنطق، وافترضت أن جامع المال الملهوج أو صاحب السلطان المسعور يؤمن بجنة أو نار، أو يفكِّر في الله الواحد القهار الذي لا يدوم إلا وجهه.

وإني واثق أن مثل هؤلاء لا يفكِّرون في الله، فإن فكَّروا فبفكر وإلحاد وإنكار، وهكذا يكون من الطبيعي رأيهم أنه لا آخرة هناك، وأنه لا بعث ولا نشور، وأنه لا يخلقنا إلا الطبيعة، ولا يبلينا إلا الزمن، ولا يميتنا إلا الدهر، وأن الإنسان ما هو إلا عدَم وإلى عدَم.

وحينئذٍ يصبح أمرهم أكثر إثارة للدهشة والعجب. إذا كان الأمر كذلك — وما هو بذلك — ففيمَ حرصه على جمع المال؟! وفيمَ سعاره في ارتقاء السلطان؟!

الحقيقة أنه لا منطق مع هؤلاء، وإنما هو جنون يتسلَّط عليهم، فيختلط الأمر عليهم لاختلاط العقل فيهم. ولكن لله في خلقه شئون، فبقدر هذا الجنون الذي يتسلَّط عليهم، ويُغشي أبصارهم عن نهاية الإنسان نجد عقولهم غاية الذكاء والنشاط عند جمع المال أو السعي إلى السلطان. فإنهم حينئذٍ يتكشَّفون عن ذكاء نادر، وحِدة بادرة، وتوقُّد ذهن يجعل كثيرًا من الناس يُعجب بهم. ولو كان هؤلاء المُعجَبون على ذرَّة ضئيلة من نفاذٍ إلى الأغوار، وعدم انخداع بالمظاهر، لأشفقوا عليهم كلَّ الإشفاق، ولرثوا لحالهم غاية الرثاء، فإن الفرد منهم إنسان في شكله، بعيد كلَّ البُعد عن الإنسانية: في مخبره، وفي داخله، وفي تصرُّفه، وفي مشاعره؛ فهو بلا عاطفة على الإطلاق لا يعرف الحب لأحد حتى ولا لبنيه.

وقد تسأل: كيف وحُبُّ البنين غريزة أودعَها الله في الآباء؟ ولكن بربك لا تعجل في الحكم، فمَن قال لك إن الله سوَّى هؤلاء الجشعين للمال والسلطان على ما سوَّى سائر الناس أنهم سرطانات بشرية خلقها الله سبحانه ليعرف الناس أنه سبحانه قادر على أن يشكِّل الناس ألوانًا شتَّى وأصنافًا متفاوتة، وأنه قادر أن يرتفع ببعضٍ منهم إلى مرتبةٍ هي خيرٌ من الملائكية، وينزل بقوم آخَرين إلى منزلة هي أسفل من الحشرية، بَلْهَ الحيوانية.

إنهم مخلوقات شاذة، نفوسهم مُسلَّطة على نفوسهم، والويل كل الويل لهم من ذواتهم، والويل كل الويل لهم من ذوي قرباهم، مَن كان بهم على معرفة، ولا أقول صداقة؛ لأنهم لا يعرفون الصداقة إلا لمنفعة، وما هكذا تكون.

إنهم لا يعرفون نبض القلب بالشفقة أو بالعاطفة، ومَن لا يعرف الحب فلن يجد أحدًا يحبه، ومَن لا يعرف الشفقة يصبح عند الناس كتلة صمَّاء من صخر مشوَّه لا معنى له، ولا فائدة من وجوده، ومَن لا عاطفة له ذميم عند الناس، مقبوح الاسم والسمعة، مرفوض من الناس، لا يستطيعون أن يعيشوا بغير حُبٍّ وجمال، ونبضِ عواطف ورقةِ مشاعر.

هؤلاء الجامعون للمال أو للسلطان هم أكثر الناس بغضًا عند أقربائهم، وكلما توثقت وشائج القربى ازدادت دوافع الكراهية. وهكذا فأبناؤهم هم أشد الناس كرهًا لهم. أتُراكَ الآن رثيت لهم كما أرثي؟

لا الدنيا أصابوا ولا الآخرة، ولا هم استمتعوا بمالهم؛ فقد أذلَّهم جمعُه عن المتعة به، ولا بسلطانهم؛ فقد أرعبهم ذلك السلطان وسعار البحث عن الجديد منه أن ينعموا بأبهة السلطان ومباهجه وهم في الآخرة شرابهم الغِسْلين، ومهادهم النار، وبئس المهاد ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولا حتى جاهلية

كانت الجاهلية ضربًا موبقًا من الحياة. كانت مجتمع الإنسان المنسحق، حتى هو بضاعة تُباع وتُشترى، ثم هو بعد أن يصبح عبدًا يصير شيئًا لصاحبه أن يصنع به ما يشاء بما في ذلك القتل. وكانت الجاهلية مجتمع الانحلال الخلقي حتى لكان سادة العرب يتاجرون في الأعراض تحت الرايات الحُمر تخفق بانهيار الشرف وضياع الحياء وغيبة النخوة وسقوط الكرامة.

وكانت الجاهلية مجتمع الرجل، فله أن يتزوج ما شاء من الناس بغير حدود، إلى جانب الجواري يتسرَّاهُنَّ، فإذا كنت سمعت عن امرأة ذات قيمة في الجاهلية فقد استمدَّت قيمتها من شخصيتها هي لا من حقوقها الاجتماعية، وحين جاء زواج الأربعة كان تحديدًا وإباحة، فقد كان العددُ مُطلَقًا بلا حدود.

وكانت الجاهلية مجتمع السيف والقتل وقوة الحيوان، فلا يعيش في أنحائها إلا صاحب القوة والسلطان المستمد من السلاح، فردًا كان هذا القوي، أم قبيلة، أم جماعة من القبائل.

وجاء الإسلام فاندكَّت هذه الأركان جميعًا.

فلا عبيد ولا سادة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ صدق الله العظيم (سورة الحجرات: الآية ١٣)، وهذه الآية وحدها من شأنها أن تكون بركانًا يقضي قضاءً ماحِقًا على مجتمع السادة والعبيد، أيكون أكرمهم أتقاهم؟ لا أغناهم ولا أقواهم ولا أكثرهم جاهًا وعددًا وجبروتًا وطغيانًا؟ فتلك إذَن هي الطامة الكبرى، وتلك هي نهاية زمان وبداية زمان. فلا عجب إذَن أن يفعل الطغاة العرب ما فعلوا.

وجاء الإسلام: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ صدق الله العظيم (الإسراء: ٣٢).

إذَن فقد ضاع أيضًا ذلك المصدر الضخم من مصادر المال، ونُكِّست الرايات الحمر، وأصبحت هباءة عدمًا تحرم باعة الأعراض والشرف من تجارتهم الدنسة، وتنضب ينابيع المال التي كانت تنسكب عليهم من هاته الخيام المنكرة الذميمة.

وجاء الإسلام فإذا هو يرفع نور السلام على العالمين ﴿لهم دار السلام﴾ (النساء ٩٤)، ويقول تعالى في سورة يونس: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾، ويقول في سورة الحشر: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾، ويقول في سورة الفرقان: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾، وفي سورة الواقعة: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا﴾؛ فهو دين السلام إذَن، فلا عدوان، ولا اعتزاز بالسيف على غير حق، ولا إغارة على الآمنين.

وحين رفعَ الإسلام السيف رفعه من أجل السلام، واستتب به السلام، فلم يفتح دولة إلا ما كان يتوقع منها أن تهدِّد الآمنين من شعوبه، ولم يُرغم فردًا على الإسلام، وإنما هو سلام سلام، ومَن يرغب في اعتناقه عن اقتناع وإقبال، فأهلًا، ومَن يبتغي البقاء على دينه فآمِنٌ هو مطمئن، وسلام عليه سلام.

واندثرت الجاهلية وزالت معالمها، ولم يبقَ من آثارها إلا ما يرضاه الإسلام، وعلى المدى التاريخي لم يكن هناك عهد كله شرور، فلا بد أن تكون هناك إشعاعات من نور في دامس الظلام، فما بعجيبٍ أن يبقى من الجاهلية النجدة، والشجاعة، وإغاثة الملهوف، وإعانة المحتاج، ورعاية الجار، وإكرام مَن غلت بهم السن، ومرَّت الأجيال، فأين نحن اليوم من الإسلام ومما بقي من أخلاق سجاحة وإن كانت إلى الجاهلية تنتسب؟!

الظلام يلف العالم الإسلامي أجمع، فلا ضياء من الإسلام ينير سماءه، ولا بصيص من شرف يومض بين جنباته القتل والدمار والسرقة والانتهاب والبغي والعدوان والهول المبيد والفرقة والتنابذ والشقاق والتناحُر، والمسلم يقتل مسلمًا، والجميع يقتلون الحق والإشراق والسلام والإيمان.

الدول تتخذ من الدول عبيدًا، وبعد أن كانت العبودية لأفراد أصبحت العبودية لجماعات بأسرها، ولأوطان بأكملها، وانظر إلى أفغانستان وإلى دول المسلمين صامتة راضية، وانظر إلى سوريا وما تصنعه بلبنان، وإلى لبنان وما تصنعه جماعات منها مسلمة بجماعات منها مسلمة، وانظر إلى تلك الداهية الدهياء في العراق وإيران، وهذا النكبة النكباء المسماة القذافي.

أين هذا من الإسلام بل وأين هذا من الجاهلية؟ ويل للعالم، أهو يتقدَّم أم يرجع القهقرى إلى أحطِّ عهودِ الإنسانية وأشدها وبالًا وأتعسها حالًا.

أيثب الإنسان إلى القمر بعلمه، وينحدر إلى القرود بخَلقه؟!

كيف يتحطَّم المنطق ويتهشم بهذه الصورة البشعة؟!

وما كان أغنانا عن القمر إذا كنا لا نستطيع أن نحافظ على الأرض. وإذا نظرنا إلى مجتمعنا هذا المصري الذي نعيش فيه طالعَتْنا الدواهي الآخذات.

لقد تحطَّم في مصر الكثير الكثير مما كانت تعتز به مصر، والمسلم ينسى إسلامه ويسرق ويرتشي ويثير الفتنة، ولا يرعى الله ويعبد المال، وكأنه سيصحبه معه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم. أو المسلم يُغالي في دينه ويبالغ مبالغة مُفتعَلة مُصطنَعة، ناسيًا قوله تعالى ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ (النساء: ١٧١)، وقوله مرةً أخرى في الآية ٧٧ من سورة المائدة ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ يريدون أن يتخذوا الدين وسيلة إلى سلطان الدنيا، بئس ما يبيتون، والله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهو سبحانه يدري أن بعضهم، بل بعض زعمائهم، مُنغمِسون في الغيِّ إلى الأذقان لا يتورَّعون عن الموبقات ما ثُقل منها وما هو أقرب ما يكون إلى الكفر يتظاهرون بالورع، وهم فيما يظنونه خفاءً يرتكبون الكبائر لا يعفون عن أغفلها شأنًا وأحطها قدرًا.

وأين الجاهلية بما أجاز الإسلام من بعض أخلاقها؟ أين النجدة والشجاعة وإغاثة الملهوف وإعانة المحتاج ورعاية الجار وإكرام الكبار؟! وأين لغة القرآن وأين لغة العرب؟!

أما النجدة فأغلب الظن أن كثيرًا من القرَّاء لن يعرف معناها وهو يقرؤها، وأين الشجاعة وقد أصبح النفاق هو سمة العصر، فلا تسمع كلمة حق إلا من النادرين القلة الذين لا يزالون يعتبرون أن الكلمة عَرضٌ وشرف.

وأين إغاثة الملهوف وأنت تجد الموظَّف يأبى أن يؤدِّي وظيفته الطبيعية إلا إذا أصاب ما لا يجوز له من مالٍ ويسمِّيه إكرامية، وهو عند الحق رشوة. وهل لمرتشٍ أن يغيث ملهوفًا؟ كيف؟ شرف وخسة لا يجتمعان، كما لا تجتمع الأمانة مع السرقة أبدًا.

وأصبحت رعاية الجار عدوانًا على أمن بيته بالأصوات الصارخة من أدوات الإعلام، أو من أبواق السيارات، هذا إذا لم يتمثَّل العدوان في تشابُك بالأيدي أو الألسنة.

وما دمنا لا نرعى شأن الجار اللصيق، فما بعجيبٍ أن نسكت عمَّا يحدث لإخواننا في الإسلام في بلغاريا والإسلام قربي ونسب! فما بالنا لم نرَ دولةً من دول الإسلام حرَّكَت ساكنًا لنصرة إخوتها في الإسلام، ولو بقَطْع العلاقات مع بلغاريا.

لقد كان العرب سبَّاقين إلى قطع العلاقات مع زعيمتهم مصر؛ لأنها استردَّت أرضها؛ لأنها وقَّعَت معاهدة كامب ديفيد التي يلهثون اليوم جميعًا إلى معاهدة قريبة منها، فتنقطع أنفاسهم، وتنغلق دونهم الطرائق، وتُسَدُّ أمامهم المسالك.

وحين يقعد بهم العجز لا يجدون مُتنفَّسًا لغيظهم إلا سب مصر وكامب ديفيد، فِعلَ الثعلب الذي لم يصل إلى العنب فراح يصبُّ على العناقيد جامَّ غضبته.

أيقطعون العلاقات مع مصر لأنها انتصرت لهم ورفعت ذكرهم في العالمين وأسعار بترولهم في دنيا المال، وجعلت أنوار الإسلام تتلألأ في أنحاء العالم أجمع؟ ويبقون على صِلاتهم وعلاقتهم مع روسيا وهي تدكُّ المسلمين في أفغانستان، ومع بلغاريا وهي تنكِّل بالمسلمين المسالمين في ربوعها؟!

أمِثل هؤلاء تُنشَد عندهم رعاية الجار؟! أليست مصر جارًا لهم وأُمًّا لثقافتهم ومصدرًا لعلمهم وفنهم ومجدهم في أنحاء العالم المُتمَدْيِن كله؟! مصر الأزهر، مصر المآذن، يقطع المسلمون علاقاتهم بها ويبقون على علاقاتهم مع الذين يُبيدون المسلمين في أفغانستان وينكِّلون بالمسلمين في بلغاريا؟

لا ورب الكعبة ... ولا والحرمَين ... ولا إسلام في هذا، ولا حتى جاهلية الإخاء والنجدة.

واليوم نحن في أعقاب عيدٍ إسلامي، نصطنع الفرحة على وجوهنا ونتبادل المعايدة أممًا وأفرادًا، وأصيح مع المتنبي:

عيدٌ بأيةِ حالٍ عُدتَ يا عيدُ بما مضى أم لأمرٍ فيكَ تجديدُ

فإن تكن عُدت بقدمَيك فلا فرحة لنا فيك، وإن كنت عُدت لأمر تجديد، فلنقل البيت القديم:

مُنًى إنْ تكن حقًّا تكن أعذبَ المُنى وإلا فقد عِشنا بها زمنًا رغدًا

حيرة ...؟!

إلى الرحاب القدسي من ساحة الرحمن يتوجَّه المكروب والملهوف وذو الحاجة، فيجد نفسه المظلمة الخراب قد أشرقت بالنور الإلهي. أينعَ نَبتُها، واخضلَّ زرعُها، وأطلَّ الندى جديبها، واستقبل الحياة بعد إدبار، واتسعت الآمال بعد اليأس.

فيا لهؤلاء المساكين الذين لا إله لهم! إلى مَن يتوجهون؟ وإلى أيِّ مشرق أمل ينظرون.

ويل لهم! لقد اختاروا لأنفسهم اليأس الذي لا أمل له، والكرب الذي لا فرجة فيه، والسواد الذي لا يستطيع شُعاعٌ أن يكشفه.

فلا عجب إن كانت نفوسهم كلها حقدًا خالصًا، ولا غرو إن كانت قلوبهم كلها كراهية داكنة معتمة.

هم لا يستطيعون أن يقدِّموا حبًّا؛ لأنهم لا يعرفون في قلوبهم إلا البغضاء والتحاقد والسخيمة والدمار.

وهم لا يريدون في الحياة سلامًا؛ لأن نفوسهم موات ودماء وقهر وطغيان، وكيف لهم أن يعرفوا غير هذا وهم لا يؤمنون بالله السلام الرحمن الرحيم الغفور.

الذين لا يعرفون الله يريدونها حربًا بين أبناء الوطن الواحد، وحربًا بين أبناء الجنس البشري أجمع، فمع الحروب يسود الخراب، وفي الأرض الخراب تنبت أزهارهم، ويخضلُّ نبتهم، وعلى الخراب يقيمون عروشهم؛ أركانها: قهر الإنسان، وقتل الإيمان، وكراهية الحب، ونزع الأمان، وإشاعة البهتان، وإفشاء الذعر، ونشر الفوضى، ومحاربة القانون، ومنع الخير، ومباركة العدوان.

فلم يكن عجبًا إذَن أن يتحد الناصريون والشيوعيون، وإن كان كثيرٌ من الناس — وأنا منهم — قد عجبوا في الوهلة الأولى التي شهدنا فيها تحالفهم، كان عجبنا أننا شهدنا

الشيوعيين يلقون ألوانًا من العذاب، وصنوفًا من تدمير عناصر الرجولة والإنسانية فيهم على يد العهد الناصري.

وكنا نحسب أن التنافر بينهم سيظل إلى أبد الآبدين، ولكننا فجأةً وجدناهم هم السادة الحكام يتسنون مناصب الصحافة والإعلام والفنون، ويملئونها من أشياعهم ومناصريهم، ويملئونها أيضًا ممَّن لا يؤمن بمذهبهم، ولكنه يريد أن ينشر إن كان كاتبًا، ويريد أن يمثِّل أو يُخرج إن كان ناشئًا، ويريد أن يعيش إن لم يكن لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

وما زالت آثار أغراسهم باقية حتى اليوم في شتَّى الأنحاء تحارب غير الشيوعي أو غير الناصري، وتبارك كلَّ ما هو كفر وإلحاد وتمجيد للطغيان وتعظيم للظلم والقهر والعدوان.

وهكذا لا نسمع شيئًا عن حرب رمضان إلا أن يكون هجومًا ورفضًا، مما اضطر رئيس تحرير الأهرام أن يصيح بهم في مقاله الأخير: أفيقوا واعدلوا فإن الأمر ليس لهوًا ولا لعبًا.

وأنا أكتب هذا الكلام اليوم بعد أن فكَّرتُ حتى ضاقت بي مسالك التفكير.

أما الشيوعية فنظرية واضحة المعالم معروفة الأسس، طبقت في بلاد كثيرة؛ لأن لها كيانًا يستطيع مَن يريد التعرُّف عليها أن يجده.

وصحيح أنها فشلت عند كل تطبيق، إلا أن هذا لا يمنع أنها نظرية لها معالمها المميزة.

وصحيح أن أي دولة لا يمكن أن تطبقها إلا إذا ألغت تمامًا فكرة الأديان، إلا أنها تظل مع ذلك فكرة ذات سمات ظاهرة. وصحيح أن الصين أضخم دولة في التاريخ وجدت في تطبيقها الخراب والدمار، مع أن الصين كان يمكن أن تقول حَسْب الفرد منا رغيف العيش، وليذهب كل ما عداه إلى الجحيم، وليس توفير ألف مليون رغيف ثلاث مرات أو مرتين في اليوم بالشيء اليسير، ولكن الصين وجدت أن النظرية ألغت الإنسانية في الشعب الصيني، ولم تستطع مع ذلك أن توفِّر رغيف العيش ذلك؛ لأن الصين تعتمد على مواردها وحدها، وليست مثل الاتحاد السوفيتي الذي يعتمد على موارد كل الدول التي أرغمها أن تكون تابعة له.

صحيح هذا؛ ولكن تظل النظرية الشيوعية مع ذلك نظرية يستطيع مَن يدرسها أن يجد لها مقدِّمات ونتائج ومعالم وملامح.

ولكن الذي أريد أن أعرفه والذي استغلق عليَّ: ما هي النظرية الناصرية؟ ما هي المبادئ التي يمكن أن يقوم عليها الحزب الناصري؟

المبادئ التي يمكن أن أتصوَّر أن تُقال غير قابلة للإعلان، وإلا فتصور معي ما طاف بخاطري.

المبدأ الأول: قتل حرية الإنسان المصري في العمل أو القول أو التفكير؛ بحيث يتم اعتقال كل مَن يظن العاملون في المخابرات من رجال ونساء أنه أتى شيئًا من هذه الممنوعات بأي صورة من الصور، والعقوبة تكون الاعتداء على المال أو العرض أو الأرواح أو كل هذه العقوبات.

المبدأ الثاني: أموال الدولة كلها ينبغي أن تكون في خدمة الحزب، يتصرَّف فيها كيف يشاء، وينفقها الحزب في الأغراض التي يرى أنها تحقِّق له الشهرة والهتاف، ولما كان لحزب هو مصر جميعًا فكل إنجازٍ يحقِّقه الحزب لنفسه إنما يحقِّقه لمصر جميعًا.

ولو مضيت في هذا السبيل ما توقَّف القلم قبل أن يكتب كتبًا كاملة لا عدد لها.

وإذا كان الحزب الناصري سيتبنَّى النظرية الشيوعية، فما الحاجة إليه ما دام منضمًّا بكل أعضائه إلى الشيوعية وأحزابها الظاهرة والخفية.

وإذا كان سيتبنَّى المبادئ التي نادت بها الثورة في يوليو عام ٥٢ أفلا يعتقد أن هذه المبادئ قد طبقت فعلًا بكل أمانة في غير العهد الناصري؟! وعلى كلِّ حالٍ فما دامت طُبِّقت والدستور يضمن الحفاظ عليها، ففيمَ إذَن يقوم حزب ليضع مبادئ موضوعة فعلًا، ويضمن بقاءَها دستورٌ وحزب وحكومة ومجلسان تشريعيان؟!

حيرة ... ولكن الله سبحانه الذي يهدي السبيل، وينير الظلام، ويزيل الحجب قادر أن يزيلها، وإنه على كل شيء قدير.

بهلوان في لوزان

أجلس في لوزان على مقهى صغير في ميدان شهير هنا يُسمى ميدان سان فرنسوا، ويمتاز هذا المكان بالهدوء وكثرة المارة، وعجيب أن يجتمع في مكان واحد الحركة والهدوء في وقت معًا، أحببت سويسرا كلها من هذا الميدان، فالناس دائمًا في سعادة وفي إقبال على الحياة دون أن تعدو هناءتهم على هدوء الآخَرين؛ فالسعادة عندهم ابتسامة تُنبئ عن قلب ليس فيه ما ينغص حياته، والإقبال على الحياة عندهم توسعة للآخَرين أن يُقبلوا على حياتهم.

وفي اليوم التالي لوصولي إلى لوزان ذهبتُ إلى المقهى في الصباح فوجدتها على عهدي بها، ولا أدري ما الذي جعلني أفكر أن أذهب إليها في بعد الظهيرة أيضًا، وقليلًا ما أفعل، فوجدت الميدان مزدحمًا متحلِّقًا حول بهلوان يعرض ألعابه عليهم وهم على مشاهدته مُقبِلون. وفكَّرتُ قليلًا، وعجبت كيف أهرب من البهلوانات في القاهرة أجدهم سبقوني إلى لوزان. ولكنني عُدت إلى نفسي وفكَّرتُ أن هناك فرقًا. فبهلوانات القاهرة يعرضون ألعابهم وقد تزيَّوا بزي المحترمين من القوم، وأسفروا للناس عن وجوههم التي خلقهم الله بها، واتخذوا أدوات البهلوانية من العمل والقلم والورق، وادعوا الحق وهم في أقصى الباطل، وتظاهروا بالأمانة وهم غرقى في الخداع والمخادعة.

أما بهلوان لوزان فهو بهلوان يُعلن على الملأ أنه بهلوان ولا خفاء، وبهلوان لوزان ينشد الحصول على صبابة من مال، ويقولها في صراحة ووضوح ويتزيَّا لغايته في ملابس البهلوان، ويصبغ وجهه بصبغة المهرِّج، فهو بما يقدِّم سعيد، والناس بما يرون منه سعداء بغير حقيقته، وهو يقف على أرجل طويلة، ولكنه لا يحسب بهذا أنه أرفع من الناس قدرًا، أو أنه قادر بذلك على أن يخدعهم عن حقيقة قامته. وبهلوانات القاهرة قصار القامة، ضئيل حجمهم بكل المقاييس، ولكنهم في جرأة المنافقين يحاولون أن يموهوا على

الناس — ويجعلوهم يظنون بهم ارتفاع الهامة وشموخ الرأس، ولو كانوا على قدرٍ — ولو ضئيل — من الذكاء لقدَّروا أن أول مبادئ الذكاء أن تقدِّر ذكاء الآخرين، وأن الشعوب هي أذكى العالم نفرًا، فمَن يحاول أن يخدعهم سرعان ما يكشفوا أمره، ويتبيَّنوا حقيقته.

مِن هذه البهلوانات مَن عملوا في خدمة الطغيان، فكانوا الآلة الصمَّاء تمسك بهم يد حديدية فراسة باطشة، راحت تلعبهم وتتلاعب بهم.

ومنهم مَن كانوا لصاحب السلطان، أو قُل لصاحب الطغيان، جواسيس ينقلون إليه أنباء الآمنين من الناس، فإن لم يجدوها لفَّقوها، ثم جعلوه يتخذها ذريعة لكل ما تقشعرُّ منه الإنسانية، وتأنف أن يكون بين أفرادها مَن يُفكِّر فيه، بَلْهَ يصنعه.

ومنهم مَن أمر بهم أن يكونوا قوَّاد جيوش وأساطين حرب، فإذا بطولاتهم تسفر عن ٦٧ وحسبهم هي خزيًا.

وجميع هؤلاء اليوم يُريدون أن ينتفضوا عن وطنيين مرنوا على مكاذبة الحياة والغدر بعقول المصريين، فهم يسعون جهدهم أن يعودوا إلى الحياة العامة، وليس يبالون تاريخهم الأسود، بل هم يدَّعون اليوم أنهم كانوا يرفضون ما كان يحدث، ولا أدري ماذا هم قائلون عما اقترفوه فعلًا وهم قضاة أو رجال دولة. ولست أدري أيضًا ماذا هم قائلون عمَّا اغتالوه من أموال لأنفسهم وما زالوا ينعمون بها حتى اليوم، إلى جانب ما اغتالوه من أرواح بشر مصريين، وما اغتالوه من كرامة مصر نفسها، بل إن منهم مَن يصوِّر له وهمه أنَّ إنقاذ اقتصاد مصر مُعلَّق بعبقريته، فهو يُعِدُّ المشاريع ليُزيح عن مصر الهول الآخِذ الذي كان هو نفسه من الدعامات الكبرى في إنزالها بمصر.

بهلوانات كثيرة ذكَّرَني بها ذلك البهلوان، ولكن بهلوان لوزان لم يسئ إلى بلاده، ولم يشارك في انتهاب أموالها، والبهلوانات الآخَرون شقوا الأفق ليُغيِّبوا فيه شمس مصر يريدون اليوم أن يعرفوا الأيدي التي تحاول أن تشدَّ شمس مصر من مغربها لتعود إلى الإشراق على ربوعها، ولتزدان مصر بالحرية التي خنقوها، وتهنأ بالحب الذي جعلوه حقدًا وبغضًا وكراهية. وبالسلام بعد حرب منتصرة حقَّقْناها بعد أن أشعلوا هم الحرب على أبناء مصر حين فشلوا في حروبهم مع أعداء مصر.

العود أحمد!

أنا أعدُّ نفسي للعودة من بلادٍ الإنسانُ فيها أعلى قيمة في الوجود ... وأنا أكتب هذا وأنا في سويسرا، بلاد الجبال والبحيرات ... كيف استطاعوا أن يُخضِعوا الجبال وهي الشاهقة

البالغة أعنة السماء للإنسان؟ فهي متعته، وهي رياضته ونزهته، والبحيرة يركبها ذلولًا تشرق للإنسان بأكمل ما فيها من وجوه أنت عليها بطل ... كيف أصبحت الجبال الصخرية الصلدة أرضًا خصيبة معطاء؟ وكيف غدا الصخر الصلب الشديد بيوتًا هي زينة ومتعة في عين الرائين، وهناءً ورغدًا لعيش الساكنين؟

وتمشي في الطرقات فتجد المصاعد الكهربية تُوفِّر عليك عناء الصعود أو الهبوط، وترى الطريق أمامك يضحك لك يستقبلك، امشِ بإذن الله سليمًا مُعافًى، فلا خوف عليك من عثرة، ولا ضير على قدميك من مفاجأة، أنت آمِن في خطاك هادئ بسَيْرك في جنبات المسالك.

وكنت قد انتويتُ أن أعود إلى مصر في آخِر هذا الشهر، ولكن فجأة عافت نفسي الحياة في أكناف لوزان الفيحاء، وفي إشراقة الدنيا بها، وملَّت نفسي السعادة في صباح ومساء. الصباح إشراق لا تلقى فيه إلا الوجوه الوضيئة بالأمن الراضية عن العيش، والمساء هدوء وسلام.

وتاقت نفسي إلى مصر بكل ما فيها من وعثاء الطريق، وغابات الأشجان، ومتاعب النفس، ونواقص الخدمات.

سئمت البلاد التي تعتبر الإنسان أغلى عناصر الوجود وسيد هذه الحياة ... وألحَّ بي الشوق إلى مصر ... بكل مصر ... بطرقاتها المُخلَّعة، الأرصفة المحفورة، المسار بمائها، وما فيها مما ندريه ولا يدريه إلا عالم الغيب والشهادة ... بشكاوى الناس من قلة الإيواء، وصعوبة النقل، ووعورة اليوم، وانكماش الغد، وضآلة الرزق، وغلاء المطلب.

وجدت الحنين إلى مصر هذه يقتلعني اقتلاعًا من مقامي بسويسرا، ويدفعني دفعات جائحة إلى بلادي، فالهناء في سويسرا ليس هنائي، والديار ليست دياري، والربوع ليست ربوعي، والنسمة تهفو إليَّ من غزالة بلدتي بجوار الزقازيق أحبُّ إليَّ من كلِّ الجمال في سويسرا، ومن كلِّ هذا الهناء في أنحائها، ومن كلِّ الطمأنينة في جنباتها، فكلُّ هذا مبذول لأصحابه وليس لي، وإن شملني منه نصيب وأنا بينهم، فكما يشمل المضيف ضيفه ببعض الرعاية، والضيف مهما ينَل من العناية يظل ضيفًا، وشعور الإنسان بأنه ليس في بيته يجعله دائمًا حذرًا، ويترقَّب يوم عودته إلى كسرة بيته وإن كان عشًّا بلا فخامة ... وإن كان سقيفة بلا جدران.

وجئتُ وحمدت العودة، وأحسست وأنا هنا أنني في مكاني الذي خلقني الله له وخلقه لي هنا، أستاف عبير آبائي وأجدادي من تراب مصر، وأشمُّ أجمل هواء عرفته في حياتي؛

هواء مصر، فإن حبنا هنا، وما مضى من أيامي هنا، وما هو في مطوي الغيب قابل هنا مثوى الذين مضوا من أعز الناس علينا ومستقبل نفوسنا ومَن هم أغلى من نفوسنا من أبنائنا.

ونحن هنا غرس في أرضه ونبات في مكانه. أصل نحن هنا، وفروع وماضي نحن هنا، حاضر ومستقبل نحن هنا ... نحب هنا بقلوبنا ومشاعرنا ونبضات عروقنا، وليس مع هؤلاء منطق إلا الحب.

ودخلت إلى مكتبي في الأهرام، أعز مكان على نفسي بعد قريتي وبيتي، وقرأت بريدي، ورحت أقلِّب الصحف التي لم تكن تصل إلى غربتي. ووجدت مجلة الأهالي في أسبوعها الماضي، كلما قرأتها تملَّكَتْني الحيرة ... ماذا يقول هؤلاء الناس؟ وما لهم ينصبون هكذا بعدوانهم الوقح على الحقيقة يريدون أن يدمغوها بالبهتان؟ وما لهم يعترضون الطريق القويم بأسلحة الزور والكذب والتمويه؟!

في صراعهم مع عبد الرحمن الشرقاوي، وليس الشرقاوي بحاجة إلى أحد أن يقف إلى جانبه؛ فهو وحده قادر وأكثر من قادر أن يمحق حجتهم بقلمه الشامخ الجريء.

والحق في جانبه واضح ... وهو ابن مصر لم يتلكأ على أبواب المخابيل من حكام ليبيا، ولم يصانع أثرياء البترول بقلمه أو كَلِمه.

ولم يقُل عن أحد أنه نبي جاء في غير موعده؛ لأنه مسلم ويعلم علم يقين أن سيدنا محمدًا — عليه صلاة الله وسلامه — هو خاتم الأنبياء، وهو قد قرأ تاريخ الأنبياء، وعلم أنهم قمم الإنسانية، وأي قمة أعلى من اختيار رب الناس ملك الناس إله الناس لحمل الرسالة، وهو يعلم كما يعلم كل مؤمن أنه لم يحدث أنْ ظهرَ نبي مجنون يخرب الأرض حواليه، ويحرق الدنيا جميعًا في جنون الزعامة وبمال الشعب الذي فرض عليه حاكمًا.

ولكن الأهالي تقول إنه نبي جاء في غير موعده.

أهم مؤمنون بالأنبياء الذين جاءوا في موعدهم حتى يؤمنوا بالنبي الذي جاء في غير موعده، وجعل معجزته محاولته السافلة الحقيرة أن يغيِّر في القرآن الكريم.

ولم يقُل الشرقاوي إن القذافي آخِر الصقور، ولست أدري مَن هؤلاء الصقور السابقون حتى أدري آخِر الصقور، إلا أن يكونوا يقصدون بقولهم هذا أنهم الطواغيت الذين يختطفون ما ليس لهم بحق والذين ينهشون لحوم الموتى، والذين يأكلون الجيف. إن كان هؤلاء هم الصقور الذين يقصدون فاللهم نعم، إنه صقر ... واللهم ياذا المَن سبحانك اجعله آخِر الصقور، فما أبغضَ الناسُ شيئًا قَدْر بغضهم للطواغيت العتاه الظالمين السافكين دم شعوبهم وأهليهم.

أنا إذَن لن أقف في جانب الشرقاوي، فهو ليس في حاجة إلى أحد أن يقف إلى جانبه، بل ربما عارضته أيضًا فيما أطلقه من اسم «اليسار الوطني» على جماعة بعينها، فأنا لا أعرف في مصر عددًا من الناس يمكن أن يُكوِّن جماعة اسمها «اليسار الوطني»، وإنما هم أفراد قلة مثل الشرقاوي — ومحمود توفيق وفتحي غانم، وربما تكون هناك بعض أسماء أخرى لا تسعفني بها الذاكرة، ولكنهم على أية حال لا يكونون جماعة يمكن أن تحمل اسمًا.

وإنما أنا أريد أن أسأل الأهالي وأصحابها: ما هجومهم هذا اللئيم الجانح على أنور السادات عملاق الحرب وعملاق السلام؟! أليس هو مَن أنشأ حزبهم وأنشأ مجلتهم واختار من بينهم اثنين جعل منهما وزيرَين عاملَين؟! ... أهذا ذنبه عندهم أم هذا جزاؤه أم على قلوبٍ أقفالها؟

وما قولهم إن الأهرام جريدة حكومية؟! ألا يعرفون أن الأهرام مؤسسة لها من المال ما يستطيع أن يخرج عشر جرائد في حجم الأهرام بما كسبته من ثقة عند الناس في مشارق الأرض ومغاربها. فالحكومة إذَن لا تدعم الأهرام، ولكن فليقولوا لي هم — ما داموا ينكرون أنهم يتقاضون الأموال من الدول الشيوعية ودول اليمين ودول البترول — كيف تصدرون أنتم؟ ومن أي الموارد تنفقون على مجلاتكم؟ إن اشتراكات أعضائكم كلها في عام بأكمله إذا كانوا يسددونها لا تكفي لإصدار عدد واحد من مجلة واحدة من مجلاتكم؟!

إذَن فأنتم تصدرون بدعم من الحكومة ... منه الدعم الظاهر الذي قرره لكم السادات، ومنه الدعم الباطن المتمثِّل في إعلانات الوزارات والقطاع العام، فإن القطاع الخاص لا يمكن أن يعلن عندكم ... وكيف يعلن ويقدِّم مالًا لإعلان في جريدة لا يقرؤها إلا المئات مشتتين في أنحاء مصر؟!

أنتم إذَن الجريدة الحكومية، أما الأهرام فإنه الأهرام، وأنتم تعرفون وإن رغمت أنوفكم ما معنى كلمة جريدة الأهرام في الآذان وفي النفوس وفي أنحاء العالم أجمع.

قرأت الأهالي عند عودتي لمصر، وحزنت أن بين ربوع مصر أمثال هؤلاء، ولكن مالي لا أقول مع المتنبي:

فإن يكن الفعل الذي ساء واحدًا فأفعالك اللائي سررن ألوف

لا يغلب ظلمٌ حقًّا

قال الشاعر:

تلوا باطلًا وجلوا صارمًا وقالوا صدقنا فقلنا نعم

وقد شاء الله لمصر أن تميع فيها الأمور، ويجلس على عرشها ملك كان في زمانه شر الملوك جميعًا، طيش أحمق، وخفة جاهل، وغيبة ضمير، وسوء مظهر ومخبر.

وكانت الثورة يومذاك أملًا، وتحقَّق الأمل، وأشرقت نفوس الشعوب مرتقبة الفجر، ولكن صدق على مصر بيت الشعر:

على الذم بتنا مجمعين وحالنا من الرعب حال المجمعين على الحمد

ولم يكن الشعب يستطيع أن يصنع شيئًا، وسيف الظلم مشهر على الرءوس، فلم يكن للشعب بدٌّ من أن يقول نعم، واللهو بحياة الشعوب لا بد أن ينتهي بكارثة تحل على الجميع. الباطشين ومن بطش بهم في وقت معًا، وكانت كارثة ٦٧ فإذا هي تتسع ويتأجج سعيرها، فيشمل العالم العربي أجمع، ولا تكتفي بمصر وحدها، وإنما هي تمعن في بلواها فتحطم مع كرامتنا تاريخنا وأمجادنا وآمالنا.

ولما كانت سنة الكون أن تتأدى كلُّ موجة فيه إلى انحسار، فقد أَذِنَ الله لمصر أن يتولى أمورها رجل راشد صادق الوطنية عميق الشعور بمصريته، ووقف ينظر الخراب، وأدرك أنه بين اثنتين ولا ثالث لهما. إما أن تنتصر مصر في حرب تردُّ إليها وإلى العرب الكرامة الضائعة والشرف المُزال والمحطَّم من أمجادها، وإما أن نموت جميعًا في ساحة القتال. وكثيرًا ما يكون الموت خيرًا من الحياة.

وكانت حرب ٧٣. وما كانت حرب ٧٣ لتصل إلى الانتصار الذي حقَّقَته إذا لم يكن السادات قد أدرك قبل أن يُعِدَّ لها أن الشعب يحتاج إلى أن يشعر بانتمائه إلى مصر، وأنه لن يشعر بهذا الانتماء، وهذه الطغمة من الذئاب الدموية تنتاش لحمه وكرامته وأمنه وحياته، فكانت ثورة مايو هي التمهيد الطبيعي للحرب.

وبعد أن هُزمت مصر في ٦٧ وليس بيننا وبين العدو قناة السويس ولا خط بارليف انتصر الجيش المصري نفسه، وعبَر بحور النار، وحطَّم أسطورة بارليف، ورفع العلم المصري على جبالٍ كنا على يقين أن القدم المصرية لن تطأها.

وشفع السادات هذا الانتصار الحربي الذي أذهل العالم بانتصار سياسي لم يسبق له مثيل في التاريخ، وحقَّق لمصر السلام الذي لولاه لكان حالنا اليوم مثل الشعب اللبناني الذي أمست حياة أبنائه نهبًا للصديق والعدو، وللحليف والخصم، حتى لا يدري بين الذين يعيشون في ساحته مَن محب ومَن كاره، ومَن يؤازره ومَن يهاجم، وحسبه الله ونعم الوكيل. ولما كان العظماء يقدمون دماءهم ثمنًا لشجاعتهم، فقد شاء الله سبحانه في علياء سمائه أن تكون نهاية السادات في يوم مجده وفخاره، وأن يُراق دمه فداءً لشجاعته. وحكمَ مصر «حسني مبارك»، وقد أدرك أن الحكم اليوم للحرية الحقة الصادقة، وليست الحرية المكذوبة المشوهة. فمصر اليوم عزيزة الجانب مطمئنة إلى سلام موثق لا شك فيه، ومصر تحتاج إلى أن تستعيد الثقة المالية التي محاها الطغاة، والثقة لا تعود إلى دولة إذا لم تكُن الحرية هي أساس الحكم فيها، وقاعدة الحياة بين ربوعها.

وأتاح «حسني مبارك» للحرية في مصر أن تكون هي الحياة، فأصبح تجار الكلام أدعياء البطولة يستخدمون الحرية في الاعتداء على أقدار الناس. ولكن تلك هي الحرية، ولم يكن «حسني مبارك» يجهل أن الحرية تفتح ساحتها للشرفاء ولغير الشرفاء. وهكذا اتضح الرئيس «حسني مبارك» عن زعيم يعتبر قمة في القوة وشدة البأس.

وكانت قوته متمثِّلة في قبوله لكل ما يُقال، لا يحاول أن يستعمل سلطاته في قمع قائل، أو في إسكات مبطل، أو إسكات مبطل كذوب. وإنما جعل الأمر للرأي وحده ودون أن يتدخل السلطان في هذا الرأي، فالقوة الحقة إنما هي أن يملك الحاكم نفسه، لا يفلت من يده زمام الأمر في غضبه أو سخطه، فالحاكم أقوى ما يكون الحاكم هو الواثق بأن ما يفعله هو الحق، وما يتغياه هو الخير.

فإذا انتقد ناقد نظر فيما يقول فإن كان حقًّا انتفع به، وإن كان باطلًا أعرض عنه دون أن يمس المبطل بأذى، وحسبه رأي الناس فيما يقول ولما كانت الحرية في مصر اليوم كإشراق الصباح الذي لا خلاف عليه.

فقد أدرك أولئك الذين امتصوا دماء الشعب وأصبح ثراؤهم بها يطاول أشد عتاة الرأسمالية أن لا سبيل لهم أن يعودوا إلى الحكم إلا أن يتنادوا ويصطرخوا: ضاعت الحرية، فأدرِكْها يا شعب مصر، وضاعت الثورة فهبوا يا أبناء مصر.

ولو أنهم ينشدون الحق وحده لكان تناديهم ضاعت حريتنا في قتلك يا شعب مصر، فأعد رقابك إلى أفواهنا.

وضاعت مصادر الثروة من أيدينا، فلا نملك اليوم أن نزيدها، فأعطنا ثروتك يا شعب مصر.

وهم يدركون أن الذي بقي من الثورة هو خير ما جاءت به من هدمٍ للملكية، وإعلاء لقيم هم لم يحافظوا عليها، وهم مَن حاولوا أن يطمسوها، ولكنها بقيت لأنها أصيلة.

وهم يعلمون أن الحرية التي تعيشها مصر اليوم هي التي سمحت لهم أن يصدر أحدهم بحزب ملحد جريدة أسبوعية ليس فيها إلا الهجوم السافر على رئيس الدولة، وكل شريف في مصر، وهي التي سمحت لبعض منهم أن يذهب إلى البلاد العربية ليستجدي من حكامها المال والرضا منتهزًا فرصة الخلاف الطارئ بين مصر وبين تلك الدول. وسمحت لبعض آخَرين أن يتآمر علنًا على الحكم في مصر.

وهم يعلمون علم يقين أنهم حين كانوا في طفولتهم وجبروتهم كانوا يقتلون من يضع يده لمجرد السلام في يد واحد من أعدائهم. والأمثلة معروفة ولم يعُد اليوم شيءٌ خافيًا. ولكن على قلوبٍ منهم أقفالها، وفي الوجوه منهم صفاقة لا تكون إلا للطواغيت، وإنهم لهم الطواغيت.

قصة لم أصنعها

ألتقي به في عرض البحر الأبيض المتوسط مراتٍ قليلة كلَّ عام، فمواعيد نزوله إلى البحر لا تتفق مع مواعيدي إلا في أيام قلائل. ونتجاذب أطراف الحديث ونحن طافيان على سطح الماء بحركة هيِّنة من الذراعَين والساقين، ونترك لأمواج البحر أن توجه مكاننا حيثما يطيب لها أن تتجه.

ويجري الحديث بيننا هادئًا ليِّنًا هنيًّا كأمواج بحيرة أو كأمواج الخليج الهادي الذي نلتقي فيه. لا نقاش بيننا، وإنما قصص صنعتها بناء الحياة على مدار العام، أو صنعناها نحن في الحياة، والعام أيام طوال، ولقاؤنا ساعات قصار تتزاحم الأنباء فيه بغير تحاشد ولا مواثبة، وإنما القصة تُفضي إلى القصة، والنبأ يسلم إلى النبأ، وقد نفتتح الحديث بكلمة قرأناها لصحفي في الصباح، أو لكاتب نشرها منذ قريب، وقد تُذكِّرنا الكلمة بقصة حدثت في نهر العام ونرويها، ومنذ أيام قلائل طلعت علينا صحيفة بكلمة لصحفي دأب على أن يدافع عن فترة بعينها وعن أسرة بذاتها، والتزم بهذا الدفاع يسارع إليه، سواء دعا إلى ذلك داعٍ أو لم يدع، وإنما هي مهمة وضعها هو على كتفيه. ولا أظن أنه اختار هذه المهمة طواعيةً واختيارًا، فقد ارتبط اسمه هو وما نال من وظائف في دنيا الصحافة المصرية وغير المصرية بتلك الفترة وبناسها وبمَن ينتسب إليها. فالدفاع دفاع عن نفسه وعن المديح الذي كان يكيله بغير حساب لهذا الزمن ولأعلامه وأقزامه على السواء. وأخونا الصحفي يحسب أنه بما يدافع اليوم إنما يدفع عن نفسه تهمة النفاق، ويعلم الله أنه أوقع نفسه في منطقة من الرمال المتحركة الخائنة التي تبتلع الإنسان كلما حاول أن يتخلَّص منها، ويزداد الابتلاع كلما ازدادت محاولة التخلُّص عنفًا وإصرارًا.

وقال صديق البحر وهو يربت الأمواج بيدَيه:

هل قرأت؟

قلت: نعم قرأت.

قال: إذَن أستطيع أن أروي لك ما حدث لي في هذا المضمار.

قلت: وهل لنا عمل إلا الرواية منك والاستماع مني، أو الرواية مني والاستماع منك.

قال: عشت عمري أعجب بالعمَّال وهم يبنون.

قلت: هذا طبيعي، فأسرتك كلها عملها البناء أبًا عن جد.

قال: وهكذا أصبحت مهندسًا، وأنا مساهم في شركة مقاولات.

قلت: وهذا أيضًا طبيعي.

قال: عرفنا في الشركة التي أساهم فيها أن هناك عملية إنشائية طرحتها شركة أمريكية تكلفتها تتراوح بين أربعة ملايين وخمسة ملايين من الجنيهات، وتقدمنا لنقوم بالعملية، وتقدمت معنا شركات أخرى، منها شركات أفراد، ومنها شركات من جملة أفراد. وبعد الفحص جاءت شركتي الأولى بين الشركات الأخرى، ولكنني لم أسارع بقبول العملية، فقد كان من بين الشروط واحد يقضي بأن أقدِّم للشركة خطاب ضمان بعشرةٍ في المائة من قيمة العملية. وخطابًا آخر بخمسة في المائة من قيمة العملية أيضًا. ورأيت أن هذا سيكلفنا مبلغًا ضخمًا من المال لا أحتمله. فذهبت إلى الشركة الأمريكية ورجوتها أن تعفينا من بعض هذه المبالغ الضخمة، ولكن الشركة رفضت قائلة إن هذا من قانون الشركة، ولا يمكن أن يغيروا قانون الشركة.

وبناءً عليه، رفضوا العطاء الذي تقدمت به وقبلوا العطاء التالي:

أتعرف من صاحب العطاء التالي؟

قلت: ومن أين لي أن أعرف وأنا لم أعرف كلمة المقاولة إلا مما درسته بكلية الحقوق.

قال: إنه من فلان.

وذكر اسمًا، لا أستطيع أن أذكره، فالحديث بيننا في البحر، ولا دليل معه يقدمه لي، ولا دليل عندي أقدمه للقارئ، وهذا كلام إذا لم نشفع فيه الأسماء بالمستندات نكن ظالمين لأنفسنا، ولذلك اخترت كلمة «قصة» عنوانًا لهذا الكلام؛ لأن القصة قد تصدق، وقد تكون تأليفًا وخيالًا.

مع أنني واثق كلَّ الثقة من محدِّثي الذي أعرفه منذ قرابة عشر سنوات لم أجرب عليه إلا الصدق والأمانة والشرف، ثم أنا رجل خالطت الحياة وعركتني، وعرفت من أخلاق الناس ما ينبغي أن يعرف مَن عاش حياتي ومَن صناعته في الحياة كتابة الرواية والمقاولات والقصص، وهذه صناعة إن لم تكن فيها واسع الخبرة بالناس وبالحياة فلا

أمل لك على الإطلاق أن تقدم إلى الناس شيئًا يستحق الذكر، فالكاتب يقدِّم الناس إلى الناس، وإذا هم أحسوا أنك لا تعرفهم حق المعرفة انصرفوا عنك كلَّ منصرف.

فصاحبي صادق لا شك في صدقه، ولكن الذي أخشاه ألا تصدِّقه أنت، فمن الخير له ألا أذكر اسمه، ومن الخير لي ألا أذكر أنا الاسم الذي ذكره، فهو اسم لا يجهله أحد في العالم لا في مصر وحدها بما ينتسب إليهم من أقوام، وبما ذاع عنهم من أحاديث ملأت الدنيا جميعًا في يوم من الأيام.

إن الاسم الذي ذكره اسم فتى صغير ليس من المفروض أن يكون على أي قدر من الثراء، فطبيعة ما سمعناه عنه تقتضي أن يكون مستورًا لا مليونيرًا، ولو سألناه أو سألنا المدافعين عنه من أين لانهالوا علينا بالأجوبة، ولكن المؤكَّد الذي لا شك فيه أن أحدًا لن يصدِّق حرفًا من أجوبتهم.

وإذا شاء محقِّق صحفي أن يتصل بي ويسألني عن صاحب الرواية التي سمعتها في مياه البحر وعن صاحب الاسم الذي ذكره فأنا على استعداد أن أذكره بشرط واحد؛ أن يتعهد المحقِّق الصحفي بتحري النبأ وتتبعه، وليس في الأمر سرٌّ يخفى ولا سرقة فتُستر، إنما هو عطاء شريف في عملية مقاولة تُقدَّم من فتى في أول حياته العملية، ففاز بها، وكل الذي نبحث عنه هو «من أين؟»، فلا داعي هناك للإخفاء أو التستُّر، سيجد المحقِّق الصحفي الطريق أمامه مفتوحًا على مصراعيه ميسورًا لسالكيه، مرحِّبًا بمَن يسير فيه، وأكمل محدِّثي في الماء الحديث فقال:

تقدَّم هذا الشخص الأسطورة إلى الشركة وقال لها: إذا كان الأول لم يستطع أن يُقدم خطابات ضمان بخمس عشرة في المائة من قيمة المقاولة، فها أنا ذا أقدم إليكم خطابات ضمان بثلاثين في المائة من العملية. ورسا العطاء عليه بطبيعة الحال.

وللقصة بقية لا تخلو من طرافة؛ فقد جمعت مناسبة من مناسبات الأفراح بين أخت محدثي ووالدة الشاب الأسطورة، فإذا الأم تقول للأخت — فلان بك (محدِّثي) يدخل في عطاء مع ابني فلان (الأسطورة)، وهل ابني قده؟! إن ابني عصفورة صغيرة لا تحتمل ثروة فلان بك (محدِّثي).

وتنتهي القصة وأتساءل: إذا كان وهو عصفورة قدَّم ثلاثين في المائة في حين أن المطلوب خمس عشرة، فماذا هو صانعٌ حين يصبح نسرًا؟!

قصة أقدِّمها إليك تقرؤها في هذا الحر اللافح، وهذا القيظ الشديد، وكل رجائي ألا تزيد وطأة الحر عليك، وألا تجعل القيظ غيظًا. وقاك الله من الحر والغيظ جميعًا إنه سميع مجيب.

كان الله في عون التاريخ

شرفت بعضوية مجلس الشورى منذ إنشائه، ولا أذكر أنني كتبت شيئًا أُعلِّق به على موضوع تحدثت فيه داخل المجلس، ولكنني في هذه المرة مُرغَم أن أختط لنفسي خطةً تخالف ما جريت عليه حتى اليوم، فقد بدأ النقاش بحديث من الزميل الكريم نظمي بطرس تناول فيه أحزاب ما قبل الثورة بهجوم قاسٍ عنيف، وكان هجومه جائحًا لم يتحسب فيه استثناء، ولم يفصل مفرقًا بين عهدٍ أو فترة وفترة، ورأيت فيما سمعت ظلمًا تأباه النفس، وجورًا لا يقبل الصمت، فطلبت الكلمة للتعليق وقلت ما معناه: إن تناول الأحزاب قبل الثورة لا يجوز أن يكون بهذه الصورة في مجلس له احترامه وتوقيره عند الناس، وإن أحزاب ما قبل الثورة هي وليدة ثورة تُعتبر من أكرم ثورات التاريخ، وإننا نكبر الحرية التي نعيش فيها اليوم؛ لأننا عرفنا الحرية قبل الثورة، ورجوت الزملاء الأعضاء أن يراعوا المسئولية التي نحملها على أكتافنا حين نتكلم في المجلس الذي يحظى بين الناس بكل إجلال وتوقير.

وحدث أن خرجت من الجلسة لبعض شأني غير متوقِّع أن يكون هذا الذي قلت موضع نقاش أو تعليق من أحد، فوجئت باسمي يتردَّد بين ردهات المجلس في ناقل الصوت الذي يُذيع الجلسة في حجرات المجلس، فأطفأت سيجارتي وسارعت إلى القاعة لأجد الأستاذ موسى صبري يُكمل كلمته التي لم أسمع أولها، وطلبت الكلمة لأردَّ على ما سمعت منها، ورددت ولا أحب أن أُعيد ما قلت، فمضبطة الجلسة كفيلة بذلك، ثم فوجئت يوم الخميس بخطاب من الأستاذ سعد فخري عبد النور منشور بجريدة الأخبار، وبتعليق مفصَّل من الأستاذ موسى صبري وجدت أنه أصبح من الحتم عليَّ أن أفصل ما أجملت حتى أزيح عنه اللبس الذي عراه نتيجة الإيجاز والإشارة دون الشرح والإضافة.

فواقع الأمر أنني حين تحدثت عما قبل ثورة ٥٢ لم أقصد ما سبقها مباشرة، وإنما قصدت فترة من الزمن توغل في أعماق التاريخ حتى تصل إلى أحداث ثورة ١٩ الخالدة.

فالذي لا شك فيه أن الديمقراطية في هذه الفترة كانت موجودة وجودًا فيه بعض النقص، وكيف لدولة يحتلها محتل بجيشه وسلطاته، وله فيها الناب والظفر والكلمة الأخيرة أن تتمتع بديمقراطية كاملة.

وقد كان الشعب المصري حين ثار ثورته في سنة ١٩١٩ ويحاول أن يُزيح المحتل كله، ولكن المحتل كان يُزحزح أقدامه في تثاقل وفي بطء مقيت، وهو يملك القوة الغاشمة التي لا تقف أمامها قوة، فلم يكن عجبًا أن يقبل الشعب المصري كلَّ بابٍ أو نافذةٍ تصل بينه وبين الحرية الكاملة التي يقاتل من أجلها، ويسعى لها سعيها وهو مؤمن بها كلَّ الإيمان، وحصلت مصر على تصريح ٢٨ فبراير، ونتج عنه دستور ٢٣، وكان هذا أكبر خطوة نالتها مصر في طريق الحرية، وقد وضع الدستور جماعة من أكبر فقهاء القانون، واعتبر العالم الدستور المصري من أعظم الدساتير العالمية، ولكن لا بد لنا أن نذكر أن هذا الدستور قد وُضع في ظل الاحتلال.

ولذلك نجد فيه مادة لا يمكن أن يقبلها شعب حر على الإطلاق، وهي المادة التي تعطي الملك الحق في إقالة الوزارة إذا وقع الخلاف بينهما، وهي مادة جعلت الدستور متناقضًا مع نفسه كلَّ التناقض، فكيف ينص في مادة منه على أن الملك يملك ولا يحكم، ثم يعطيه في نفس الدستور حتى الإقالة، إلا أن يكون المحتلُّ بجبروته قد فرض هذه المادة فرضًا حتى يظل الأمر في يده فإن حق الإقالة ما دام في يد الملك، ومادام الملك يُدين في بقائه للمحتل وحده، فالأمر إذَن أولًا وأخيرًا في يد الإنجليز المحتلين، وما أحسب أن حزب الوفد انتفع بشيء في حياته جميعًا قَدْر النفع الذي أفاده من هذه المادة، فإن رئيس الوزراء الوفدي لم يقدِّم استقالة إلا مرة واحدة على طول الحياة النيابية في مصر، أما في المرَّات الأخرى، فلم يكن يخرج من الوزارة إلا وقد أقاله الملك، وكان الوفد يحكم ويرتكب ما يرتكب من أخطاء، ويبدأ الشعب في معرفته على حقيقته من تقريب للأصهار واستثناءات وتجاهُل لمواد الدستور، ثم تأتي الإقالة من الملك، فتغسل عن الوفد جميع أخطائه وتعيده إلى شبابه الأول، ويعود أغلب الشعب إلى الالتفاف حوله.

وهكذا أصبح الأمر كما قال الدكتور هيكل باشا: إن الديمقراطية هيهات لها أن تصبح كاملة في مصر وفي مصرَ احتلالٌ ومِلك يخضع للاحتلال.

وفي ظِل الاحتلال كان الخلاف بين الأحزاب اختلافًا حول تصرُّفات وأشخاص، ولم يكن اختلافًا حول مبادئ؛ فمبادئ الأحزاب جميعًا كانت تُوشك أن تكون متطابقة، وكانت المادة الأولى فيها جلاء الجيوش الإنجليزية عن مصر.

ولنَعْبر الآن من الحديث العام إلى الحديث عن الوفد منذ جاء على أسِنَّة الحِراب في فبراير سنة ٤٢ الإنجليزية، إلى أن أُقيل في ٨ أكتوبر سنة ١٩٤٤، ثم حين عاد في سنة ١٩٥٠، ولست أفكِّر أن أتحدَّث عنه حديثًا مُفصَّلًا، فإن المجال لا يحتمل هذا، ولكنني أكتفي بأن أذكر الذين عاصروا هذه الفترة بالاعتقالات التي قام بها الوفد لعلي ماهر باشا وغيره لحساب الإنجليز، وإسقاط عضوية مجلس النواب عن مكرم عبيد باشا واعتقاله لحساب حزب الوفد، واختلطت مصالح الاحتلال بمصالح الوزارة الوفدية، ولم تتعارض، وكانت الحجة عند المحتل أنه مُشتبِك في حربٍ عالمية، ولكن الوفد لم تكن له حجة، وأُقيل الوفد في سنة ١٩٤٤، ثم عاد بأغلبية ساحقة في سنة ٥٠.

ألم أقُل لك إن الإقالة كانت تُطهِّره أمام الشَّعب تطهيرًا. وحين عاد حزم أمره أن يُمالئ المِلك بكل الوسائل، وسمعنا عن النحاس باشا حين لم يكن له مطلب في الحياة إلا أن يقبِّل يد الملك الطاهرة، وقد كانت في ذلك الحين أشد ما تكون تلوُّثًا. وإن لم تكن هذه الواقعة صحيحة فقد سمعنا في أمرها تشكيكًا، فالذي لا شكَّ فيه ذلك التصريح الذي أدلى به النحاس باشا حين سُئل عن شأن من شئون الحكم، وكان المِلك في ذلك الحين في كابري فقال: «إن كابري قِبلة يجب أن نتجه إليها جميعًا»، وهكذا جعل المِلك قِبلة وكعبة.

وصنع الوفد ما صنع بأعضاء مجلس الشيوخ من القمم الشامخة، وطردهم وغيَّر المضبطة، ولو أنني لا ألومه كلَّ اللوم على تغيير المضبطة هذا، فما دام الإنجليز هم الذين أمروا، فإنه لا يملك إلا الخضوع.

ولكن مهما يكُن الأمر فإن الإنسان لم يكُن في هذا العهد بكلِّ سوءاته هالِعًا على يومه وغده، وكانت العقوبة القصوى هي الاعتقال، وكان هذا جميعه في ظِل مِلك فاسد، وجيش شرس أجنبي محتل ... ولهذا كان الطبيعي أن يفرح الناس بقيام ثورة ٢٣ التي أعلنت أنها تقوم للمحافظة على الدستور.

ثم ... ويل لنا من ثم ... أُلغِيَ الدستور جميعًا، فكان شأننا شأن مَن استعان بطبيب لينقذ مريضًا، فإذا الطبيب يُطلق الرصاص على المريض.

وخرج الإنجليز. وكنا نظن أننا سنحتمي في ظِل حُكَّامنا، وقد أصبحوا لأول مرة في تاريخنا من أبناء مصر، دماؤنا دماؤهم، وعِرضنا عِرضهم، فإذا مصر تصبح وهي حرة

من المحتل رعشة خوف، ولوثة مذعور، فالعِرض مُباح، والدم مُهدَر، وكل قيمة في الحياة مُحطَّمة مُحترِقة، فهي هشيم، وجفَّ ماء الحياة، وزاغت الأبصار وارتعدت الفرائص — كل الفرائص — وحدث ما حدث، ونزل بنا من الكوارث ما نزل؛ حتى جاء المغفور له صاحب الأيدي الناصعة على تاريخ مصر أنور السادات، فردَّ إلى النفوس الطمأنينة، وإلى الوطن والعرب الكرامة، وتوَّج حياته بالسلام.

ونحن اليوم في حُكم حسني مبارك نحقِّق من الآمال ما هفَوْنا إليه حين تخلَّصْنا من المِلك الفاسد ومن المحتل الغاشم. وما صبونا إليه من حريةٍ لا مثيل لها.

فالمقارنة التي عقدتُها إذَن في مجلس الشورى كانت بين ما كان قبل ٥٢ وما بعدها من حُكم الطغيان.

وقد عرفت أن الأستاذ موسى صبري قال فيما قال: إنني ارتجفتُ غضبًا. علم الله يا أخي موسى أن رجفتي كانت لك لا عليك، ومالي لا أرتجف وقد كانت الجرائد حتى في حُكم الوفد الذي أدينه اليوم تطلع كلَّ يوم مليئة بالهجوم السافر على رئيس الوفد ووزارته، وعلى المِلك في بعض الأحيان، في حين نُفيتَ أنت من الصحافة جميعًا؛ لأنك تجرَّأتَ فكتبتَ نقدًا لمذيعةٍ في التليفزيون. وهذا بعضٌ ضئيلٌ من كلٍّ فظيع مريع سفاح.

إن التاريخ الذي نذكره اليوم لم يصبح بعدُ تاريخًا، وإنما هو واقع عشناه، واصطلينا ناره، ونعمنا فيه من حسنات، فإذا كنا نختلف فيه اليوم فإلى أي مصير هو صائر حين يصبح سماعًا لا عيانًا، وذكرى لا واقعًا؟ كان الله في عون التاريخ!

المنافق الشجاع

شجاع غاية الشجاعة، جبان أشد الجبن ... يزأر كالأسد الأغلب الكاسر. ويموء كالقط الرعديد الذليل ... وله لكل حالة ملبس، ولكل موقف وجه، ولكل قوم مظهر، ولكل جلسة نغمة.

يمدح غاية المديح، فيبلغ من النفاق أحطَّ النفاق وأرخصه، حتى إذا خلا بمَن يأمن شره، ويثق أنه لن يمخض به الأرض، أو يمزِّق منه الأوصال هاجم في شراسة، وعدا على كرام الناس في وقاحةِ مَن لا حياءَ عنده. وفي سعارِ مَن لا عِرض له.

رأيته مع صديقٍ لي أجِلُّه وأحترمه. وهذا الصديق لا يقبل الضيم، قادرٌ دائمًا على أن يرد العدوان بمثله إن لم يكن بأشد. رأيت المنافق الشجاع أمامه كقط ذليل يسوق له المديح وابلًا بغير حدود، ويتزلف له في خسة وضراعة، يوشك أن ينحني على يدَيه يُقبِّلها ظهرًا لبطن، ورأيت الصديق الذي أجِلُّه يخجل من المديح، ويتواضع ويبحث عن شيء من الألفاظ تردُّ عنه عادية هذا المديح، وكان الرجل الكريم يعلم أن رأي المنافق يبتعثه الرعب ويعلنه النفاق، حتى أذِنَ الله وانفضت الجلسة، ثم لم تمضِ إلا أيام قلائل وجمعَتْني والمنافق دعوةٌ لم يكن فيها ذلك الذي أوسعه نفاقًا منذ أقل من أسبوع. وكانت الدعوة تضمُّ السيدات والرجال، وكانت جلستي قريبة من المنافق، وقدَّم صاحب الدعوة المدعوِّين بعضهم إلى بعض، وكان بين السيدات سيدة نجهل أن اسمها اسم الأسرة الذي يحمله الصديق الذي كان موضع التكريم والإجلال من المنافق الشجاع، وما هي إلا لحظة حتى وجدته يسأل السيدة: ألكِ قرابة بفلان؟

فقالت السيدة في تواضُع: إنه أخي.

وإذا المنافق الشجاع يقول دون أن يمسك لسانه بعض الحياء من وجودي، أو بعض الأدب المفروض في الحديث إلى السيدات: إنه أسخف إنسان عرفتُه.

وإذا السيدة تقول وقد وقفَتْ عن مجلسها: إنه أخي، وإني أحبه كلَّ الحب، ولا أسمح لأحد أن يتحدَّث عنه في غيابه، وتستطيع أن تقول رأيك فيه له هو إن أردت، أما أنا فاسمح لي أن أنصرف عن مجلسٍ يُذكَر فيه اسم أخي بهذا الأسلوب.

وانصرفت السيدة عن مجلسنا في أدبٍ، ودون أن يرتفع لها صوت أو يعلو منها حسٌّ، وقد كان المنافق الشجاع يعلم أن السيدة لن تسمح لنفسها أن تفعل أكثر مما فعلت، فهو يعلم من طول ما عاشر الحياة كيف يتصرَّف الكرام.

أما أنا فلم أَطِقْ صمتًا وسألته: قل لي أيها الرجل، أليس الشخص المقصود هو نفسه الذي رأيتك منذ أيام قلائل تسكب عليه غدقًا من المديح أوشكت أن تغرقه به؟! ولكن للمنافقين فلسفة خاصة، ربما كانت فلسفة حقيرة مهينة، ولكنها ترضيهم عن أنفسهم وتهبُ لهم الأمن والطمأنينة … فإذا يقول لي: وماذا كنت تريدني أن أقول له؟ لو أنني قلت رأيي الحقيقي لما أَمِنتُ أن يضربني ضربة قد تودي بحياتي؟!

ومرةً أخرى لم أَطِقْ صمتًا: كنت تستطيع ألا تُكيل له المديح أو الذم، وأنت تعلم أنه يعرف رأيك الحقيقي فيه؛ لأنك تعلم أن رأيه فيك شرٌّ من رأيك فيه. أما وقد نافقتَ ما نافقتَ وعلى مشهدٍ مني فكنت تستطيع على الأقل ألا تقول لأخته ما قلتَه الآن حتى لا أزدادُ احتقارًا لك.

– ولكن رأيك لا يعنيني!

– ذلك لأنني لا أضرب الناس، وإن كنتُ أعتقد الآن أن هذه قاعدة ينبغي أن أخرج عليها من حين إلى آخَر. وعلى كلِّ حالٍ ما شأن أخته التي لم ترَها إلا اليوم حتى تجرحها في أخيها وهو غائب؟!

– أريد أن أقول رأيي.

– فإذا بلغه؟

– واضحٌ أنها سيدة فاضلة، ولن تنقل إلى أخيها ما سمعته مني حتى لا تجرحه، فالفُضليات من السيدات لا يحببن أن ينقلن إلى الناس إلا ما يسعد الناس. فما بالك وهو أخوها الذي تحبه؟! لا شكَّ أنها لن تُخبره حتى لا تُغضبه.

– وحسبتَ أنت الحسبة في لحظات، وأعلنتَ رأيك في هذه الخسة. إذَن فاعلم أني ناقل هذا الحديث إلى صاحبه.

– لو كنتُ أعرف أنك ممَّن ينقلون الحديث ما قلتُ الذي قلت.

– اسمع، الحقيقة أنني كنت أحتقرك احتقارًا شديدًا، حتى لقد كنتُ أحسب أنه ليس هناك من سبيلٍ إلى مزيد لهذا الاحتقار … ولكنني أهنئك؛ فقد بلغت من المهانة مكانة

لا يبلغها إلا أنت، وأهنئك؛ فقد نجحت أن تجعل احتقاري لك يزداد أضعافًا مضاعفة، أهنئك.

– شكرًا.

ليس الصديق الذي كان موضوع المديح والهجوم نكرةً في الناس، ولا هيِّن الشأن، بل هو رجل بعيد الصيت، واسع الشهرة، له شأن عظماء الرجال الكثيرين الذين يحبُّونه حبًّا عميقًا صادقًا. وله أيضًا الأعداء الذين يبغضونه أشدَّ البغض. ومَن لا يغيض له ولا رأي له، وهو صاحب رأي، وهو يعلنه في غير مداراة ولا تحايُل، وإنما هو يصدِّع به أعداءه في علن الكرام، وفي صدق أصحاب الرسالات لم يكن عجيبًا إذَن أن ينتقل إليه هذا الحوار جميعًا من شخص آخَر آثر الصمت في الدعوة التي جرى فيها الحديث، ولم يعلن أنه يعرف الشخص موضوع الحديث.

لقيت الصديق الذي أجِلُّه وسألني، فتأبيتُ أن أقُصَّ عليه شيئًا مما حدث، وعرف هو أنني أداور بالحديث لا أنفي ولا أثبت، فأدرك صحة ما بلغه، فهو يعلم أنني لا أريد أن أكذب، وهو يعلم أنني أربأ بنفسي عن النميمة والإيقاع بين الناس. فلست بهذا، فإذا الرجل يقول في كبرياء: أنا لا أشكرك، فمثلك أتوقَّع عنده ما قلت. أما هذا المسكين الذي تريد أن تستر عليه فاعلم أنه مفضوح بما ينشره على الناس. وأنا لا أغضب من أي إنسان يسبني في غيبتي، فحسبي شرفًا أن أمثال هؤلاء يخشونني ولا يجرءون على مهاجمتي إلا حين أكون بغير مشهد، وحين يكونون بعيدين عن حضرتي.

وقلت في صدق: وهذا ما أتوقعه عندك، وهكذا يكون شأن الكرام.

ومن الهدم بناء

في قديم الزمان منذ ألف عام ونيِّف قال المتنبي:

وكم ذا بمصرَ من المُضحِكات ولـكِنَّـه ضـحِـكٌ كـالـبُـكـا

والعجيب أن هذه المُضحِكات تزداد على الأيام ارتفاعًا، وتزداد دواعي البكاء فيها شدةً وشناعة.

ارتفع قوم بغير ضمير بعمائرهم ... وسارعوا فباعوها حتى يتحمَّل غيرهم البلاء كلَّه متمثِّلًا في ما لهم أول الأمر، ثم مُتمثِّلًا في حياتهم جميعًا. وكان من الطبيعي أن تصرخ مصر، ويعلو منها الضجيج أنَّ بين أبنائها أقوامًا تُجرِّد إلى هذا الحدِّ من الإنسانية، بل وتجرِّد أيضًا من بُعد النظر؛ لأن أدوات البناء من أسمنت وحديد لا تقبل الرشوة، وتأبي أن تسكت على ما يرتكبون ولا بدَّ لها أن تعلن احتجاجها، ليس على الورق، وإنما هو انهيار وقضاء على أرواح وعلى مستقبل أقوام لا تفرق حين تقتل بين شخص وآخَر، وإنما هي تقتل الجميع في غير عقل ولا رحمة ... ولماذا ترحم قوم أقبلوا على شراء هذه الشقق دون أن يتحقَّقوا من أن البناء قام فيها على أسس هندسية سليمة، ورخصت ببنائه الجهات المتخصِّصة في إعطاء الترخيصات ... وحين يُعلن الأسمنت والحديد رفضه سيصبح المُلَّاك ومهندسوهم جميعًا مسئولين ... وهكذا تخلى عنهم بُعد النظر أيضًا.

وحين أصبح انهيار العمارات ظاهرة ... وحين أصبح لا يقتل مَن يقتل فقط من أفراد، وإنما تعدَّى ذلك إلى سُمعة مصر التي تحتاج إليها لتعيد الطمأنينة المُمزَّقة التي ورثتها عن أيام القهر ... تصدَّت السلطات لهذه الظاهرة، وصدر القانون بهدم كلِّ بناءٍ قام بغير إذن.

وبدأت الجهات التنفيذية تُمارس في تطبيق القانون ... فإذا بأقلام مصرية ويمسك بها آدميون من بني الإنسان تصيح بالذين يطبِّقون القانون أن ما يفعلونه ظلم وطغيان ... وأن الهدم لا يستغرق إلا لحظات، في حين يحتاج البناء إلى سنوات ... وقد نسوا أن الذي حدث ليس هدمًا وإنما هو بناء ... هم يهدمون بضعة طوابق ويبنون هيبة دولة بأكملها.

ما هذا الهراء أيها الآدميون؟! أيبقى البناء حتى ولو أدَّى إلى قتل مَن فيه؟! أيبقى البناء لتنهار في كل يوم عمارة على ساكنيها وعلى سُمعة مصر وكرامتها؟!

أتبقى العمارات لتتحدَّى القانون وتجعل منه أضحوكة ... إنَّ بلدًا لا يُحترم فيه القانون بلد جدير بأن يُمحى من الوجود ... وإن شعبًا يعيش في بلد بلا قانون شعب مُشرَّد تائه يأكل الناسُ فيه بعضهم بعضًا، والشريعة بينهم السلاح والتقرُّب من ذوي السلطان، ويومذاك يصبح الفرد في هلع وفي حيرة مهلكة بلا حماية.

فالقانون وحده هو الحماية ... وإن الإبقاء على العمارات التي ارتفعت بغير إذن قتل للقانون وقتل لهيبة الحق، وهيبة الدولة، وحين تصبح الدولة بلا هيبة تسقط الحياة جميعًا، ولا تستحق أن تُعاش.

إن الذي أقام هذه العمارات أقامها على باطل، فهي باطل، ولا بد أن يسحق الحقُّ والقانونُ كلَّ ما هو باطلٌ ... وإن قومًا سكنوا هذه العمارات هم واحد من اثنين: إما جاهل لم يحاول أن يعرف كيف أُقيمَت هذه العمارات، وهكذا يصبح مُغفَّلًا والقانون لا يحمي المُغفَّل ... وإما مُغامِر قامرَ بحياته وبماله راجيًا أن تُغضي الحكومة عنه عينًا إذا سكت عنه الأسمنت والحديد ولم ينهارا عليه وعلى أسرته، وعلى المغامر أن يقبل كلَّ ما ينتج عن مغامرته.

والدفاع عن هؤلاء من مُلَّاك إلى مشترين من مُلَّاك أو مستأجرين جريمة أضخم من جريمة المالك الغشَّاش السفَّاح؛ لأن الدفاع عنهم دفاعٌ عن تمزيق القوانين، وعن قتل الناس، وعن القضاء على سُمعة مصر وكرامة القانون وهيبة الدولة.

وهاتان عمارتان قد سقطتا في يوم واحد في الإسكندرية والقاهرة ... وتزداد الكارثة في كل يوم هولًا واتساعًا ... ونسمع — وويل لأرواح الناس مما نسمع — أن التنفيذ قد أوقف في بعض العمارات حتى تحكم المحكمة ... تُرى هل الأسمنت والحديد عندهما خبر بالانتظار حتى تحكم المحاكم وهي التي تغص بالمتقاضين؟ وهيهات أن تفرغ قبل وقت لا يعلم أحد مداه إلا الله سبحانه في علياء سمائه.

وإذا كان الأسمنت والحديد قد بلغهما هذا الذي قيل فهل يستطيع أحد أن يسألهما إن كانا ينتويان الانتظار أم سينقضَّان على السكان بغير إذن من المحكمة أو من أي جهة أخرى؟

ولقد يتصور بعض الناس أن يجرم المجرمون القتلة من أجل مزيد من المال، وإن كان الذين يرتكبونه تمزيقًا لكل معاني الإنسانية.

ولكن كيف نتصوَّر أنْ يدافع عن هذا أصحاب أقلامٍ يريدون أن يقيموا من أنفسهم زعماء ... علم الله أن زعامتهم لن تكون إلا وبالًا عليهم؛ لأنهم يتركون عملًا تقوم به الدولة إلا هاجموه في شراسة، حتى حين تحافظ الدولة على هيبتها وهيبة القانون في وقت معًا.

وليس مقبولًا أن يُقال إن أزمة المساكن اليوم تدعو إلى التهاون في تطبيق القانون؛ فنظرةٌ واحدة إلى هذه العمارات التي خالفَتْ تجعلنا ندرك فورًا أنها لغير الذين يعانون من أزمة السكن، وإنما هي للأثرياءِ الفاحشِ ثراؤهم، وأغلبهم يريد أن يحسِّن بها مسكنه أو يتاجر فيها ... فأغلب هذه العمارات إن لم تكن جميعها من السكن الفاخر وليس فيها ما بُني ليواجه أزمة الشعب في المساكن ... ومحاولة اللجوء إلى هذه الحجة رفعٌ لشعارات على الهواء تعوَّد هؤلاء الكُتَّاب أن يرفعوها كلما وجدوا إلى ذلك من سبيل.

حتى وإن كان هذا على حساب مصر ... نعم وإن ... حتى وإن كان على حساب القانون ... نعم وإن ... حتى وإن كان على حساب هيبة الدولة ... نعم وإن!

لا بد للمد أن ينحسر

ماذا أصاب السينما المصرية؟ وأي شيطان هذا الذي سيطر على موضوعاتها ومؤلفيها ومخرجيها ومشاهديها في وقت معًا؟

كيف أصبحت المواخير والحانات في مصر هي تاريخ مصر؟

وكيف أصبح الداعرات والراقصات وبائعات الهوى والقوَّادون هم أعلام مصر الخفَّاقة وهم الساسة والأبطال وهم المجد والفخار؟

أيتصوَّر هؤلاء المؤلِّفون وأولئك المخرجون أن مصر ماخور كبير لا يمثِّله إلا هذه الحثالة التي تسحقها نعال مَن يتعاملون معها قبل أن تسحقها نعال الآخَرين.

إنني بما أشاهده اليوم من أفلام وما أراه من إعلانات سينمائية أعتبر أن الدعارة قد عادت إلى مصر عودة رسمية مظفرة، تحفُّ بها مواكب الطبل والزمر والدعاية والإعلان.

وقد كانت قبل أن تُلغى متخفية مستخزية، إذا ذكرَ أحدٌ أمرها ذكرَهُ همسًا في حياء.

ولكن الحياء سقط وأسفرت الدعارة عن وجهها المقيت في أفلام الكُتَّاب والمخرجين.

والعجيب في أمر هذه الأفلام أنها حين ترتئم المخطئات لا بد أن تجعل منهن ضحايا، وأنهن الطاهرات العفيفات البريئات التي أرغمهن الزمان على ممارسة المهنة الوبيلة، والأفلام بعد ذلك تدور كلها حول ظلم المجتمع لهاتيك الداعرات، وكأنهن ما ظلمن أنفسهن، ولا ارتكبن خطيئة، ولا اشتركن مع مَن اعتدى عليهن فيما صار إليه أمرهن.

والذي نعرفه أن الزنا لا يتم إلا بطرفين، والذي يعرفه الناس أن أحدًا لا يستطيع أن يصل إلى امرأة تأبى ذلك إلا أن يكون ذلك بحريتها الكاملة، وما شاهدتُ فيلمًا إلا وجدت التي يريدون أن يجعلوا منها ضحية كانت تستطيع ألا تكون ضحية في كل الظروف التي يفتعلونها افتعالًا، والتي يدبِّرها المؤلف في سذاجة بالغة التهافُت، وربما لا أستثني

من ذلك إلا حالة التهديد والاغتصاب، وتلك حالات نادرة كل الندرة، والنادر لا يصلح أن يكون قاعدة إلا أن يتاجر به المنتجون والمؤلِّفون والمخرجون.

إنني أتصوَّر أن المنتجين والمُؤلِّفين والمخرجين الذين يقدِّمون هذه الأفلام قد ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا تُجَّار خطيئة، وإذا كان تاجر الخطيئة يمارس تجارته مُتستِّرًا في همسٍ، فهم يمارسونها علانية يذيعون أنباء تجارتهم بكل وسائل الإعلان.

وإذا كان تاجر الخطيئة يمارس تجارته مع أفرادٍ فهم يمارسونها مع جماهير وشعوب.

وإذا كان تاجر الخطيئة ساقط الحياء وضيعًا فهم أشدُّ منه فُجرًا، وأنكأُ منه فحشًا، وأسقطُ حياءً، وأحطُّ وضاعة.

أيدري هؤلاء ماذا يصنعون بالفتيات وهم يعلنون عليهن ألا بأس عليك يا فتاة أن تخطئي، فإنك ستُعتبَرين حينئذٍ شهيدةً جارَ عليها الزمن، ولم تجُرْ هي على عِرضها وعِرض أبيها وأمها، وشرف إخوتها وأسرتها جميعًا. أيدري هؤلاء التجَّار ماذا يصنعون بتاريخ مصر وقد جعلوا معالمه الجغرافية المواخير والحانات وبيوت الدعارة، ومعالمه التاريخية الداعرات والقوَّادين والساقطين والفاشلين والمنحرفين والشذَّاذ والمهترئين من البشر؟

أيدري هؤلاء ماذا يصنعون بمصر اليوم وهم يقدِّمونها إلى العالم كله على هذه الصورة النتنة، وكأنها لم تلد من فتاة إلا الداعرة، ولا من رجل إلا القوَّاد والشاذ، فنحن إذَن لسنا أول دولة في العالم العربي تصبح فيه المرأة على هذا المستوى الرفيع السامق الذي نُشرِّف به أيَّ بلد في العالم نزوره.

إن المرأة عندنا شرف وعفة وملائكية وأمومة في بيتها، وهي في مجالات الأدب فخار ومجد، وفي ميادين العلوم رفعة واعتزاز لمصر جميعًا وللمصريين، بل للعرب، بل للإنسانية جمعاء.

ومصر في رجالها أعظم من أن نذكر فضلها، ولا سبيل أن نحيط بعظمتها وبغناها في رجالها. فإنَّ غِنى مصر الأول والحقيقي إنما هو بما تملكه من عظماء في كل ميدان، هي رائدة الثقافة العربية العلمية والأدبية والفنية على السواء.

وهي التي تصدِّر اليوم الكفاءات الشاهقة من علمائها إلى أعظم البلاد تحضُّرًا.

فلماذا يريدون أن يجعلوا مصر العالمية برجالها على هذه الصورة؟! أكلُّ هذا من أجل بضعة أموال يجمعونها؟! أوَليس هناك من سبيل آخَر لجمع هذه الأموال؟! أتراهم لو

قدَّموا فنًّا لا دعارة فيه يخطئهم المال؟! أم هي نفوسهم وما ركبت عليه من حب الاتجار بالخطيئة؟! أم هانوا على أنفسهم وهانت عندهم كرامتهم فهم يصرخون على ملأ العالم أنهم تجَّار خطيئة ويفخرون بالخزي، ويعتزون بالذلة، ويباهون بالفجور؟!

إن هناك دولًا أوروبية ما زالت بها الدعارة رسمية، ونشاهد أفلامها، فإذَن هي رفيعة المستوى في موضوعها وفي فنها على السواء.

ومعروفٌ أن الفن هو كيف تقول، وإننا نرى أفلام هذه الدول إذا تعرضت لموضوع داعر فإن هذا يكون استثناءً نادرًا لا يكون سمة ولا يشكِّل موجة. ثم هم حين يفعلون يجعلون الداعر داعرًا، والشريف شريفًا، ولا يدافعون عن الخطيئة وكأنها هي سُنة الحياة.

فإذا كان هذا في بلادٍ ليس فيها ما في بلادنا من تقاليدَ شرقية، وتعاليمَ تقدِّس الحياة النقية والعرف ترى الشرف حياة والموت دون العِرض أسمى مراتب المجد. فكيف سوَّلَت لهؤلاء المنتجين والمؤلِّفين والمخرجين نفوسُهم أن يعصفوا في شراسة ضاربة بكل مقدَّساتنا وتقاليدنا وتعاليمنا وأعرافنا، إن أشدَّ الأقوام عداءً لمصر لا يستطيعون أن يُسيئوا إليها كما يسيء هؤلاء المصريون ببطاقاتهم … الشياطين الكافرون الفاسقون بحقيقتهم وانتمائهم.

وأنا لا أطالب الرقابة. فواضحٌ أنه لم تعُد هناك رقابة، فإن اسم أي فيلم من هذه الأسماء كان كفيلًا وحده بالرفض بادئ ذي بدء. وقد أحسن الوزير فعلًا حين منع فيلمَين، ولكن الأمر أفدح من مجرَّد فيلمَين. لقد أصبح الأمر ظاهرة، ولذلك فإني أطالب الجمهور أن يتيقَّظ لما يريد أن يصمه به هؤلاء الداعرون من إقبال على السقوط، وما يريدون أن يصموا به مصر من خزي.

ولكنني واثق أن كلَّ موجة إلى انحسار، وأن الجمهور إنْ أقبل على مثل هذا الهوان فترة فهو مرتدٌّ عنه من فوره. وفي البلاد التي يُسمَح فيها بالأفلام الداعرة أصبحت دُور السينما خالية من عرض هذه الأفلام، وانحسرت هناك الموجة؛ لأن الجمهور الذي أقبل سرعان ما أصابه القرف، وانصرف متعفِّفًا أن يرى الإنسان وهو ينقلب إلى حيوان.

فيا أيها المنتجون، ويا أيها المؤلِّفون، ويا أيها المخرجون، قريبًا ستعرفون إلى أيِّ مُنقلَب أنتم ساعون، ولن يُخلِف الله وعده.

نيام على غير مضاجع

من الناس أقوام مارسوا الكتابة عددًا، وأتاحت لهم الظروف أن تظهر كتاباتهم، وأغلب الأمر أرغموا الظروف أن تتيح لهم الطلوع على الناس بما يكتبون، فطلعوا، ومرَّت الأعوام فما أحسَّ بهم أحد، فلا النقاد اعترفوا بهم، ولا القرَّاء أحسوا بوجودهم، فكان طبيعيًّا أن يقفوا خارج الحلبة ليسبوا كلَّ مَن فيها ويهاجموه في ضراوةٍ لا مثيلَ لها، وبغير ذوق فني، وبغير إبداءِ أسباب؛ فليس إلى الحق يهدفون، ولا هم ينشدون العدل فيما يعيبون، إنما بغيتهم الوحيدة هي أن يهاجموا، آملين أن يُحطموا المشاهير في مظنة منهم كاذبة أنْ لو تحطَّم هؤلاء لن يبقى غيرهم في الميدان، ولو كانت بهم مسكة من عقل لأدركوا أن هؤلاء المشاهير غير قابلين للتحطيم؛ لأنهم لم ينالوا شهرتهم بالحظ أو بالبساطة، وإنما نالوها بموافقة الغالبية العظمى من قرَّاء اللغة التي يكتبون فيها، عربية كانت أو كانت غير عربية، ولو كانت بهم بقية من ذكاء لأدركوا أن اختفاء هؤلاء المشاهير بالوفاة أو الصمت لن يتيح لهم أن يظهروا؛ لأن الشعب حين قبل العمالقة قَبِلَهم لأنهم عبَّروا عنه، وحين رفضهم هم رفضهم لأنهم غير صالحين لمخاطبته، ولم يرفضهم لأنه مكتفٍ بكتابة، فالشعوب دائمًا تحبُّ أن يتعدَّد كتَّابها ومفكِّروها.

وهكذا لم يكن عجبًا أن نجد هؤلاء الضائعين في تيه الأدب يتخيَّرون القِمم الشمَّاء ليهاجموها، محاولين أن يقضوا على ذؤابتها، فإذا هم يتهاوون إلى سفحها، وقد تحطَّموا جذاذًا، وتمزقوا خرقًا.

وقد واجه طه حسين وشوقي والعقاد والمازني وتوفيق الحكيم وعزيز أباظة ومحمود تيمور وغيرهم من العمالقة ألوانًا من الهجوم شتى، وأفانين من القذف بلغت في بعض الأحيان مبالغ الوحشية الشرسة الطاحنة، فما زادهم هذا الهجوم إلا بريقًا وتوهُّجًا، وما ازداد المهاجمون إلا انطفاءً وخفوت ذِكْر.

والرغبة في الشهرة عند المهازيل تشكِّل نوعًا من السعار المجنون الذي يجعلهم يستهينون بكل ما يتصل بشرف الآدمية، فنجد منهم مَن يحاول أن يُحدث أيَّ تفجُّر ليحدث به دويًّا، وحتى لو كان هذا التفجير سينسفه هو نسفًا حتى لا يُبقِي منه على شيء.

وليس يعنيه أن يصدم شعور الناس، ويعتدي على مقدَّساتهم، ويدمغ الكرامة بالهوان والنبل بالخسة، وما أصدق المتنبي حين قال:

مَن يهُن يسهل الهوانُ عليه ما لـجُـرحٍ بـمـيِّـتٍ إيـلامُ

فيجد واحد منهم يكتب كتابًا لا يستحيي فيه أن يذكر أنه كان لصًّا وتاجر متعة، وذلك منه وصول من الحضيض إلى هاوية لم تعرفها البشرية، فأصحاب هذه المهن في مألوف أمرهم يسترونها على أنفسهم، ولا يعالنون بها إلا حين تقتضيهم المهنة أن يعلنوا، فما رأينا لصًّا يباهي بأنه لص، ولا تاجر أعراض يفاخر بأنه يمارس تلك الصنعة، أما أن ينشر هذا فتلك جديدة في السفالة والانحطاط والهوى إلى غير قرار، ومن عجب أنه بعد ذلك يظهر على الناس، ويهاجم كلَّ شريف في الحياة حتى أصبح الشرفاء يعتبرون الهجوم منه وسامًا لا يدانيه وسام، وشرفًا يحزنهم أن يفوتهم.

ونجد آخَرين يهوِّن كل جليل في حياتنا، وكل سامق من تاريخنا القديم والحديث على السواء، وهو — للأسف الشديد — مدرك عواقب هذا الذي يفشيه من آثار وبيلة تقع عليه أولًا، ثم هي بعد ذلك تثير نفوس الأغلبية الكاثرة من الناس في مصر وفي الشعوب العربية كافة، ولكن ماذا يهمه ما دام هو قد أحدث التفجير الذي ينشده، وليكن هو أول الضحايا وليكن التاريخ من بعض ضحاياه ولتذهب مشاعر الناس إلى الجحيم؟!

وإني أحس أنه بما يصنع يريد أن ينتقم من البشر أجمعين ما داموا هم لم يُكسبوه الشهرة التي أرادها لنفسه، ولم ينزلوه من نفوسهم المنزل الذي يتوهَّم أنه حقيق به.

وآخَرون كانت كتاباتهم هذاء لم يخطها إلا مهلوس مجنون لا يعي ما يقول، وكان من الطبيعي أن يعيا الناس عن فهمه، ويعتبروا ما يكتبه لغة أخرى غير لغتهم، وكان من الطبيعي أن ينصرفوا عنه كأنه لم يوجد.

وكان لا بد لمثل هذا وللآخَرين من أمثاله أن يناموا ولا سبيل إلى نوم، مع الشعور بالفشل والإحباط، فهم إذَن يحتالون على أنفسهم ويخادعونها عن الحق، وينسجون من الوهم ما يجعلها تُطَمئِن صاحبها أنه نابغة سبقَ زمانه، وأن الذين أصابتهم الشهرة إنما اقتضوها بماء وجوههم، وبما أنهم جهلاء يخاطبون جهلاء، وبما أنهم تافهون لا

يرتفعون إلى السماوات التي نحلِّق فيها نحن بأفكارنا، ولو أننا نافقنا الناشرين، وحاولنا إرضاء الناس بكتابة ما تستجيب لهم حواسهم الساذجة الفجة لأصبنا من الشهرة ما لم يُصِب أولئك المهازيل الذين يتصدرون الحياة الأدبية في هذا الزمن النكد، فكل زمان لا يشتهرون فيه زمن نكد، وأن شهرتنا قادمة لا شك في قدومها وينامون.

ولو أنهم لم يناموا وحاسبوا وَهْمهم حساب عقلاء، لا حساب مهلوسين، لتبيَّنوا أن الشعوب لا تبغض أحدًا قَدْر بغضها للمنافقين، ولها في كشفهم عيون راصدة لا تنام، وليس يخفى عليها من أمرهم خافية، وأن للشعوب عقلاء تسجل كما لا تسجل أحدث الآلات الإلكترونية، وقد تنسى الشعوب، ولكن لأنها تريد أن تنسى، وهي حين تنسى يكون ذلك منها عن إدراك لا عن غيبة وعي أو غفلة.

وكم من نافق وهوى به نفاقه إلى أسفل درك؛ فليس كل نفاق ناجحًا، وإنْ نجح شخص ما بالنفاق فشل به نفسه مئات من الناس، والمنافق قصير مدى الخطى، منكمشة حياته، هزيل نجاحه، ومهما يبلغ بنفاقه من سلطان فهو عند الناس محقور الشأن، لا وزن له ولا قيمة.

وإن كان النفاق سبيلًا مُمهَّدًا في عالم الوظيفة فهو طريق مُغلَق في عالم الفكر والأدب والفن بعامة.

فقد يجد المنافق في عالم الوظيفة مَن يبصقه إلى منصب، ولكنه في عالم الأدب والفكر ليس له إلا الناس ملاذًا، وهم وحدهم مَن يرفعون شأنه علمًا، أو يخسفون به الأرض ليكون موطئ نعال.

أما وهمهم أنهم سبقوا عصرهم فهو باطل بطلانًا أصليًّا ليس له من زوال، فإن الكاتب ابن عصره يستمد منه ويعطي له، وبما أن هذا خلَّد الشعراء والكتَّاب على مدى الزمان فإن الأجيال حين تتسلم المشاهير بعضها من بعضها تتسلمها بعصورها وبالأزمان التي عاشت فيها وعبرت عنها، وما كتب لها الخلود إلا لأنها كانت من مرايا عصرها ومن أضوائه، ولو أنها حاولت أن تعبر عن غير عصرها، أو تكتب لغير زمانها، لأصابها الفشل الذريع، ولامتنعت الأجيال أن تتداولها إلى الخلود.

وبعدُ، أفتراني قد أصبتُ بالإحباط قومًا استكانوا إلى أوهامهم واطمأنوا إليها، وانقضضت أنا على سكينتهم وأوهامهم فعصفت وأذعرت طائرهم وأسلمتهم إلى اليأس؟ قد أكون، ولكن البتر بالعضو الأشل أخلق، وإنَّ عليهم أن يفيقوا إلى حقيقتهم، ويبحثوا عن عمل يتقنونه بدلًا من أن يناموا بغير مضاجع على أرصفة طريق ليس طريقهم، فهم فيه غرباء، ولا أمل لهم أن يصبحوا من أهله، اللهم بلَّغتُ اللهم فاشهد!

لا بد لها من وقود

كريم هو الله، رءوف بعباده، شفوق بما رحمة منه، استطاع الإنسان عَبْر العصور وعلى مرِّ الدهور أن يتحمَّل آلامه، وأن يصبِّر نفسه على البلاء. تتداول عليه أيام النحس والسعود (والنحس من بعد سعود شر أنواع البلاء)، فإذا هو صابر صادق، وتصدق عليه الآيات الكريمات ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ (سورة الدخان).

ويذهب هؤلاء إلى الجحيم أو يغفر لهم ربهم فيوفيهم جزاءهم، فإنه سبحانه هو العدل المطلق، ولهذا فاليأس من رحمة الله لا يدخل أبناءهم، ولا يمسهم قنوط، ويسعون في الحياة سعيهم، منهم مَن يتبع الطريق الأقوم، ومنهم مَن يحيد، وجميعهم على شوك الحياة صابر. لقد خلق الله هذا الإنسان من قوة لا تماثلها قوة، ومن ضعف لا يُدانيه ضعف. هو قوي حين تتصل أسبابه بالرحاب القدسي، وحين يتجه بروحه إلى الملكوت الأعلى فإنه حينئذ يصبح وقد عجزت مغريات الأرض جميعًا أن تلحق به ... قد تترجَّح خطاه في أول الطريق، وقد تراوحه من متع الدنيا أقسام تتخلج لها نفسه بين إقدام وإحجام حتى إذا سيطر على نوازعه وتملك أمره وزجر الدنيا ازدجرت، وأصبح هو أقوى ما عرفت البشرية ... إنه الإنسان الذي حمل الأمانة بيده أن يختار المتعة العاجلة، واللذة العابرة، والنساء، والمال، وكل ما يقدِّمه الشيطان من إغراء، أو يخوض في غير هذا ينظر إلى الآفاق العليا من السماء، وتصبح هذه الدنيا جميعًا بكل ما يحكمه الشيطان فيها هباءة لا قيمة لها، الإنسان سيدها وجبارها.

وهو هو نفسه عبد الله الخاضع له، أخبت إليه، وسجد مع الساجدين، وسبح باسمه واجدًا في عبوديته تسيُّده، وفي خضوعه جبروته، وفي إصابةِ كرامته عزته، وفي سجوده مجده وكبرياءه.

وذلك الإنسان بلغ ما بلغ بإيمان داخلي هو واحد من النَّجْدَين الذي هداه الله، وطريق من طريقين، وهو الطائر الذي في عنقه أن يختار حرًّا في اختياره بين لذة سريعة في الدنيا وبين متعة خالدة في الآخرة، ومتعة الدنيا حاضرة ماثلة يشهدها بكل حواسه يراها بعينَيه ويشمها ويسمعها ويلمسها، ومتعة الآخرة إيمان في النفس لا يزيد على مجرد شعور لم يرَه ولم يشمه ولم يسمعه ولم يلمسه، وإنما أدركه بقلبه. ثم أمعن فيه بعقله، وملأت كلمات الله أقطار الدنيا حوله حين يقول سبحانه عز من قائل:﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، فإذا الإنسان المؤمن يصبح هذا العملاق السيد الجبار الخاضع.

هذا التسيد وهذه العبودية وذلك التجبُّر وذلك الخضوع هو مصدر سعادة لا يعرفها إلا مَن كان مثله. وبهذه السعادة يقطع الإنسان طريقه الوعر الخشن بين أنياب البشر الحادة وبين أضراس الدنيا الفاتكة، تغريه بكل فتنتها أو تذله بكل ظلمها، ويظل هو ذلك السيد العابد عازفًا عن فتنة الدنيا ومتكبِّرًا على إذلالها، فلا تملك إلا أن تنحسر عنه هي خاضعةً ذليلة.

يعمل فلا يعمل إلا فيما يشرف، ويسعى فلا يسعى إلا في النور.

والناس أغلبهم لا يحبون الشرف ولا يحبون النور.

فقد أوهنتهم الدنيا أن يقاوموها، وأذلَّهم سلطانها أن يخضعوها.

هؤلاء المساكين من الناس هم الفئة الغالبة، ضعاف، لا لأنهم لم يتسيدوا الدنيا ويتغلبوا على أنفسهم، فإن هذا أمر شاقٌّ عسير لا يطيقه إلا مَن كان عاتي القوة فذًّا عملاقًا.

أما هم فمساكين؛ لأنهم حينما يلقون بأنفسهم إلى أضراس الدنيا تظل تمخضهم بين نحس وسعود، وبين مرتفع وحضيض، وتمضغهم فتفقد نفوسهم احترامها لأنفسهم، ويصبحون دون أن يشعروا في دفاع الهول الوبيل، وأي هول يلقاه إنسان شر من احتقاره لنفسه وبغضه لها واستصغاره لشأنها. هذا الإنسان الحقير هو شر عدو للإنسان الذي تمكن من الدنيا، وحرمها من أن تتمكن منه.

وقد يكون الإنسان الضعيف مالكًا لمال لا يحصيه عددًا، ولسلطان ليس له أمد، وقد يكون الإنسان القوي مقترًا عليه في الرزق، وليس له من السلطان نصيب. ولكن وبعزة

الله وقدرته يصبح الغني الباذخُ الغِنى أمام هذا الفقير حشرة أو أقل شأنًا. ويصبح ذو السلطان الشاهق العريض أمام مَن اختار سلطان الله متسوِّلًا يستجدي منه قبسة هيِّنة مما يسعد به من راحة ضمير، وهدوء خاطر واطمئنان حياة وثقة بالنفس، ولا يستمدها إلا من ذلك الإيمان وتلك الثقة بالله الواحد القهار.

وتصبح الدنيا عند ذي المال والسلطان هي حياته الواحدة، فهو يعلم أنه لو فقدها فالجحيم مثواه في الناحية الأخرى، فهو أحرص ما يكون على هذه الدنيا، والدنيا لا تذل أحدًا قَدْر ما تذل حريصًا عليها، فقد يزول ماله ويدمر عليه سلطانه وتصدق عليه الآيات الكريمة من سورة «الدخان»، ولكنه يظل متشبِّثًا بالحياة وإن كان فيها يتسول المطعم، أو كان فيها ذليلًا عبدًا للبشر، ولما يلقونه إليه من فتات، ويحاول أن ينسى ولا يستطيع أن ينسى قوله سبحانه وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (سورة الانشقاق)، فهو يخشى هذا اللقاء، فهو لم يعُد له في حياته شيئًا ... كان في فم الدنيا الجائعة، أكلَتْه، وكان يُخيَّل إليه أنه يأكلها، وامتصته وكان يتوهم أنه امتصها، حتى إذا أفاق إلى نفسه استبانت له الحقيقة، لم يبقَ منه إلا ما يصلح للحريق.

مسكين هذا الإنسان؛ حمل الأمانة وما كان كفئًا لها، والذي خلقه يعلم ضعفه، بل لا يعلمه إلا هو، وهو سبحانه يمهِّد بالغفران طريق الخاطئين، ويغرس بالرحمة سبيل الضائعين، ولا يرفض في رحاب رضوانه إلا المشركين الذين يجادلون فيه عن جهالة، ويصدون عن وحدانيته بإلحادهم وعن ملكوته بكفرهم، أولئك هم التائهون حقًّا، وأولئك هم وقودها ... وأنه لا بد لها من وقود.

أغريب أنا إذَن

مصري أنا بكل نسمة هواء أنشقها، مصري أنا بكل لحظة من لحظات حياتي، مصري أنا وهي رغد وسعادة وهناء، ومصري أنا وهي مهزومة، ومصري أنا وهي منتصرة، ومصري أنا وهي تفدي الإسلام والعروبة بدمائها الذكية وبحر مالها، ومصري أنا وهي سلام، ومصري أنا وهي محتلة بالإمبراطورية أو محتلة بحالة البشرية وشرازم الدول ومطاريدها، ومصري أنا وهي تسترد أرضها جميعًا، ومصري أنا وهي مكبَّلة، ومصري أنا وهي حرة عزيزة كريمة، على ترابها لعبت، دمي كل نقطة فيه مصرية خالصة.

تعلَّمتُ في مدارسها، وعرفت قريتها من أبعد أعماق قريتها، وعرفت الشارع والحارة والعطفة والزقاق، ليس في مدنها مدينة لم أزُرها، زيارة عابرة أو زيارة متأنية. لم أغرب عن مصر في حياتي أكثر من شهر، فلغتي لغتها وتصرُّفي تصرُّف الخُلَّص من أبنائها، وإشارتي مطبوعة على جوار من إشارات أبنائها، لا أتصور أن إنسانًا ما يمكن أن يكون مصريًّا أكثر مما أنا مصري، لم أشعر في حياتي بغير نبضها، وما يعنيني في العالم مجد إلا مجدها.

أنا بعض من أنفاس الليل والنهار بين ربوعها، أنا ذرة من ترابها، أنا نقطة من نيلها، أنا ورقة من أشجارها، أنا نبتة من حقولها، أنا صدى الأذان في سمائها. فماذا حلَّ بي في هذه الأيام؟! لقد أصبحت — وأنا ذلك الرجل — أحس أني غريب في مصري هذه التي أنا منها نفحة، وهي مني كل أمي وكل أبي وكل زوجي وكل ابني وكل بنتي وكل بيتي، ولكني غريب فيها هذه الأيام. أترى هي غربة عن مصر أم غربة عن الزمن؟! أنا غريب … فعن أي المصدرين غربتي؟ أهي غربة عن بلدي أم غربة عن زمني؟ لكَمْ تمنيت أن تكون غربة عن الزمن، إذَن فيشكرني في غربتي كل أبناء جيلي في شتى أنحاء العالم. ولكن كم أنا أسيف حزين.

أنا غريب عن مصر هذه، ولست غريبًا عن الزمان، أنا أقدر وأقبل ولا أعجب لمجرى الحياة في شتى دول ومختلف أمصار، أنا عنها غريب بدمي وبمولدي وبنشأتي. ولكن ما يجري في مصر اليوم جعلني أحس في كثير من لحظات يومي أنني غريب، فأنا بين واحدة من اثنتين كلتاهما أشد مرارة من الأخرى؛ إما أن هذه ليست مصري التي ولدتني، وإما أنني أنا لم أَعُد أنا الذي عهدت نفسي، أجلس أمام التليفزيون وأسمع كلامًا يقولون عنه شعرًا. وأنا رجل صناعتي في الأدب والشعر أعرفه منذ نطقت الكلام وحفظته ورويته وصنعته، ليس ما أسمع شعرًا ولا هو نثر. وكنت قد تعلمت في مدارس مصر أن الأدب هو البيان، والبيان أهم ما فيه هو الوضوح، لا بيان فيما أسمع ولا وضوح، إنه كلام لا أعرف كيف ركَّب صاحبه ألفاظه ليجعل منها جُملًا غير مفيدة، هل ما أشاهد وأسمع جملة مُركَّبة أو جريمة تُرتكب؟! ولكن التليفزيون المصري الذي يحمل لواء الدولة ... الدولة المصرية يذيع هذا الكلام ... فأنا إذَن غريب عن مصر، وأقرأ أخبار الناس، فأجد النبالة قد رحلت عنا، وأجد الطهارة أصبحت استثناء، وأصبحت السرقة وخيانة الأمانة والاختلاس والاعتداء على أموال الشعب هو الأصل ... ليست هذه مصر!

لا شك أن لكل زمن لصوصه وناهبيه، ولكنهم كانوا هم الاستثناء، وكان الأصل هو الأمانة، فكيف انقلب الأمر كل هذا الانقلاب؟ كان الأمين على خزانة إذا مس منها حوكم، سواء أعاد ما اختلس أو لم يُعِده؛ لأن الجريمة تتم بمجرد تحويله المال الذي كان لديه أمانة إلى مال خاص له، ولأنني أعلم اليوم أن الجريمة تسقط إذا هو أعاد المال الذي اختلسه إلى الخزانة، والكارثة أن هذا يحدث بحكم مجرى العمل اليومي، وليس بحكم القانون الذي لم أكن أتصوَّر أن يحطمه في يوم من الأيام مجرى العمل اليومي؛ فأنا إذَن غريب عن مصر.

اقتصاد مصر يُدمر وتُنصب عليه الأيدي العابثة من كل جانب، والعمال لا يعملون، والإنتاج يتضاءل، والتبجُّح يتسيَّد، ولا عقوبة لمسيء، ولا مثوبة لمتقن. ويختلط الكسول الجامد الحس الوقح بالنشيط ذي الحياء، ويصبح كلاهما سواءً في المنح والعلاوات والترقيات؛ فأنا إذَن غريب عن مصر. المتعلِّمون أشد جهلًا من الأميين، والمنارة الكبرى من الأزهر الشريف أصبحت جامعة، مثل كل جامعات العالم، وهي التي كانت منفردة لا مثيل لها في العالم أو في التاريخ، ومن كرسيها الموصول بالعامود صنعت كرسيها الجامعات جميعًا، وتصدع حصن اللغة العربية وهدمت حصونها، وأصبحت لغة القرآن غريبة مثلي في بلد الأزهر الشريف وأحد الجامعات وعلمها الفرد، وأسمع في التليفزيون والإذاعة لغة غير التي أعرفها، لا هي العربية التي تعلمناها، ولا هي العامية التي نشأنا نسمعها، وإنما

هي شيء آخَر حقير لا لون له ولا دلالة ولا مفهوم؛ فأنا إذَن غريب عن مصر. وأرى الأفلام … وويل لمصر من أفلامها: دعارة وخدر وسكر وانحدار، كل هذا بغير القصة التي تعودنا قراءتها ومشاهدتها على شاشات السينما، مصرية كانت الأفلام أو أجنبية، وأسمع أرقام الإيرادات وأجور الممثلين فأصيح وأصيح؛ فأنا إذَن غريب عن مصر. وأبحث عن مسارح الدولة فيقولون: إن الممثلين الكبار نزحوا إلى حيث المال الوفير في السينما والتليفزيون، وأسأل: وهل بدأ هؤلاء الممثلون كبارًا أم كانوا شبابًا شداة صنعوا مستقبلهم على خشبة المسرح، ثم انتقلوا إلى سماء النجوم وحضيض المال؟ فلماذا لا يعمل المسرح بالشباب الجديد المتخرِّج في المعاهد الفنية، والنصوص المصرية موجودة في تاريخ المسرح المصري وفي حديثه والنصوص العالمية لا تمتنع على أحد، يستطيعون أن يعرضوها مترجمة أو مُمصَّرة. لا أجد الجواب. وقد نشأتُ منذ أنا طفل لا يكاد يعي، أجد في مصر مسارح عددًا؛ فأنا إذَن غريب عن مصر، وأرى مسلسلات التليفزيون، أشاهد منها ما يُمثَّل في الريف، فأجد ريفًا غير الذي عُجِنَت في جنباته كل جارحة من جوارحي.

إنه ريف لا أعرفه ولا يعرفني … لا هو إلى الدلتا ينتسب، ولا هو إلى صلة بالصعيد يمتُّ، ريف يصنعه المؤلف وفق هواه ويحسب أنه إذا أقلب القاف جيمًا على لسان الممثِّل فقد صنع الريف، وإذا كانت الرواية في القاهرة فالهول الأخذ والزيف المشين، وكلنا يعرف القاهرة وما في بيوت القاهرة، إنها قاهرة أخرى غير تلك التي يرزؤنا بها المؤلفون في التليفزيون. فإذا تغاضينا عن التضليل في رسم مصر من ريفها إلى حضرها، وحاولنا أن نبحث عن لمحة من فن أو ومضة أصالة من الدراما، فسعْيُنا خائب، وبحثنا هباء، وقد رأينا أفلامًا مصرية غاية في الروعة، ورأينا مسرحًا مصريًّا غاية في الرفعة، والأصل في الفن أن يزداد على الأيام أصالة وشموخًا وتفرُّدًا. والأصل في الفنانين أن يزيدوا البناء الذي تركه لهم السابقون سموقًا وعلوًّا. ولكن للأسف هدموا البناء القديم وما أقاموا مكانه شيئًا. وما هكذا مصر … فأنا إذَن غريب. وأخرى لا تقل هولًا عما يحيط بنا أن عضو النيابة هو وكيل النائب العام، هو الرجل الذي أنابه الشعب ليحرك له الدعوى العمومية ضد كل مَن يعتدي على حق من حقوق أفراد الشعب، وهو من باب أولى المنوط به تحريك هذه الدعوى إذا اعتدى شخص ما على قيم هذا الشعب وتراثه وثقافته، فكيف إذَن يقيم وكيل من وكلاء النائب العام الدعوى على التراث الأدبي وهو جزء من تاريخ هذا الشعب؟!

إن وكلاء النائب العام محتم عليهم أن يعرفوا ما هو التراث الأدبي، ومحتم عليهم أن يكونوا على وعي بجانب كبير منه. ترى هل فكرت النيابة العامة في هذا التراث وفي عدد

الأجيال الضخم الذي صاحب فيه هذا التراث الشعب المصري؟ ألم يفكِّر لحظة لماذا لم يقُم واحد من زملائه السابقين على مدى مئات السنين بتحريك الدعوى العمومية طوال هذه السنوات، أم يريد هو اليوم أن يصحِّح خطأً وقعت فيه أجيال النيابة المتعاقبة على مدى التاريخ، أم تراه يبتدع في وظيفة النيابة العمومية بدعة جديدة، فيصبح وكيل النائب العام الذي هو وكيل الشعب سلاحًا على الشعب بدلًا من أن يقوم بوظيفته الأصلية فيكون سلاحًا لصالح الشعب؟ أنا لا أدري!

فأنا إذَن غريب عن مصر. وأخرى أدهى من كل ذلك وأمَرُّ، أرى الشيوعيين قد طفوا على سطح الإعلام المصري في شتى نواحيه ومجالاته، وأوشكوا أن يصبغوا مصر المؤمنة الأصيلة بلون الدم! وقد عاشت مصر حياتها جميعًا وهي مصر الأزهر، حتى بعد أن أصبح الأزهر جامعة، وعاشت مصر من مشرق التاريخ دار الحضارة لا العدوان، والحب لا القهر، والإخاء لا التمزق. وإن تكن فترات قد مرَّت بها نضبَ فيها الحب وتسيَّد العدوان، فقليلًا ما كانت تمكث هذه الأوقات. وأنا من أكثر الناس علمًا أن الرئيس حسني مبارك رجل مؤمن عميق الإيمان، الديمقراطية مذهبه، الإسلام دينه، والحب ديدنه، والشرف رايته. إذَن فما هذا الذي يحدث في الإعلام المصري؟ أنا إذَن غريب عن مصر … وأستطيع أن أمضي في الحديث فلا أقف، ولكنني أحس خنجرًا يغوص في قلبي مع كل كلمة يخطها قلمي، فحسبي — وفوق الحسب — ما انغرس في فؤادي من خناجر … والله وحده هو الموئل، وما خاب!

جاهلية جديدة

حين جاء الإسلام كان المجتمع العالمي كله يقوم الأساس فيه على القوة المادية الباطشة، فالسيد هو مَن يملك السلاح والمال والعبيد، وكانت هذه الأعمدة للسيادة واضحة كل الوضوح في المجتمع القبلي الكائن في جزيرة العرب، فالبطش بالإنسان هو المظهر الأول للسيادة، وكثرة العبيد والمال هي المعالم التي ترفع الإنسان بين قومه، والانحلال الخلقي وانعدام القيم وفوضى الأمور هي السمات الأساسية التي تقوم عليها شئون الجماعة، وعبادة الفرد هي العبادة. وما كانت الأصنام حبيبة إليهم إلا لأنها كانت تنأى بالإنسان عن التفكير، وتجعل المجتمع يقبل ما يرزح فيه من تعبُّد للأفراد. فما كانت الأصنام إلا أقنعة لهؤلاء السادة حتى يعبد الناس الأصنام في ظاهر الأمر، بينما هم في الحقيقة يعبدون السادة الذين يحمون هذه الأصنام ويدافعون عنها بأرواحهم.

والشعر الجاهلي مليء بالأمثلة التي تؤيد هذا المذهب الذي يؤكد أن الفرد الغاشم كان هو الحاكم المطلق؛ السيد الذي لا يُرَد له أمر، واسمع معي عمرو بن كلثوم في معلقته:

إذا بلغَ الرضيعُ لنا فطامًا تخرُّ له الجبابرُ ساجدينا

وهذا المعنى تكرَّر في كل الشعر الجاهلي الذي نظمه شعراؤهم في الفخر.

وتلك عجيبة من العجائب. فما الذي يجعل الجبابر يسجدون للرضيع الذي لم يصنع بيدَيه شرفًا ولا قدَّم لمجتمعه فضلًا، إلا أن يكون الجبابر خائفين من قومه ذوي البطش والجبروت ... وربما قيل إن هذا الشعر كان تفاخرًا كاذبًا، ولا يدل على واقع الأمر. وهذا القول حق ولكن يظل هذا الشعر مع ذلك يمثِّل ما يهفو إليه أبناء المجتمع الذين ينطق

الشعراء بلسانهم من جعل الناس، وعلى رأسهم الجبابر، ساجدين لقومهم مرتعدين منهم خائفين مرعوبين من سطوهم.

وكان من مظاهر السطوة كثرة المال، وما كان المجتمع يعني في قليل أو كثير من أين يحصل صاحب المال على ماله، وهكذا كان السادة يشترون الإماء ويجعلون منهم تجارة، ويبيعون المتعة لَمن يشتريها، ممارسين بذلك أحقر ما يمارسه إنسان في مفاهيم الفترة التي أعقبت ظهور الإسلام، وكان الأثرياء السادة لا يرون أيَّ بأس أن يكونوا قطَّاع طريق يسرقون المال بالقوة ممَّن لا قوة له ولا حول، ويعود قاطع الطريق بعد أن يرتكب جريمته ليصبح بكل وقاحة سيدًا في قومه، يخرُّ له الجبابرة ساجدين. وكانت المرأة متاعًا لا أكثر، حتى أننا نجد الدكتور هيكل في مقدمة كتابه الخالد «حياة محمد» يقول: إن المرأة في عصر من عصور الجاهلية لم تكن زوجة لفرد، وإنما كانت زوجة للقبيلة كلها، وما كان على الذي يريد أن ينفرد بها إلا أن يغرس عصاه خارج خيمتها فيعرف أفراد القبيلة أنَّ واحدًا منهم في خلوة معها، ويرتد عن الخيمة بما فيها، ولا أقول مَن فيها؛ فقد كان الذين بداخلها في تقديرنا نحن حيوانات، وما كانوا آدميين.

وتتم الخيانة إذا خلا بالمرأة واحد من غير أفراد القبيلة. ويقول الدكتور هيكل إنه حدث مرة أن اجتمعت القبيلة جميعًا أمام خيمة امرأة لها، فلم يجدوا أحدًا منهم غائبًا، فاقتحموا الخيمة، واكتشفوا أن امرأتهم تخونهم، فقتلوها هي ومَن معها، وهكذا كان المجتمع متحلِّلًا منهارًا أبشع ما يكون التحلُّل والانهيار، وظهر الدين الجديد يصيح «لا إله إلا الله ... الله أكبر». إذَن، فالأفراد ليسوا آلهة، وإذَن لن يعبد الناس أفرادًا من الناس، وإذَن لا سادة هناك ولا عبيد، وإذَن سيستلب الدين الجديد كل مظاهر السيادة التي يرتع في نعمائها السادة الذين يتاجرون في المتعة، والذين يغتصبون أموال الناس وكراماتهم إفكًا وبهتانًا وعنوة بلا حق لهم، فقد كان الحق غريبًا في دنياهم، يكاد لا يجد له مأوى إلا عند قلة نادرة هي التي سارعت إلى الإسلام أول مَن سارع، وإذَن فلا تجارة في أجساد البشر، ولا كسب من بيع المتعة، وإذَن فلا اعتداء على أموال الناس، ولا عدوان على كرامتهم ولا على مقدراتهم. ويوغل الإسلام في تحطيم سلطانهم، فيسوِّي بين الرجل والمرأة في الحقوق، ويجعل الذمة المالية للمرأة منفصلة عن الذمة المالية للرجل، ويحدد حقوقها في تفصيل لم تعهده البشرية من قبل. إذَن، فالعتاة المستكبرون لن يستطيعوا حتى أن يمسوا أموال زوجاتهم. ما هذا الدين؟! ومن أين جاءهم ليقضي على كل ما يَلِغون فيه من دماء البشر؟!

ويزداد الدين وضوحًا وتتوالى آياته أنَّ فَضْل الإنسان على الإنسان لا يكون إلا بتقوى الله والإخلاص في عبادته وحده لا شريك له، والتصدُّر في عبادته وحده لا شريك له،

والتصدُّر في المجتمع يكون بالعطاء لا بالأخذ أو النهب، والعطاء لا يكون بالمال فحسب، وإنما بالنفس وبالمعاملة وبالتحية. ويقول عمر بن الخطاب — رضي الله عنه وأرضاه — لوالٍ له، هو أبو موسى الأشعري: «أسِّ بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك؛ حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك». ويرنُّ هذا الخطاب في سَمْع الأجيال حتى يصبح في زماننا الأخير واحدًا من أسس القوانين العالمية، وما له لا يكون وقد حرص فيه أمير المؤمنين أن يحاسب القاضي أو الوالي نفسه في تامة وجهه، وفي الجهة التي يتسمتها هذا الوجه، فلا يقبل على شخص ويُعرض عن آخَر؟! يا لهوان المجتمع الجاهلي إذَن! ويا لضيعته! إن الإسلام قد قلب كلَّ الموازين، وسحق كلَّ العرف الذي كان سائدًا، كما قلب الأصنام وسحقها. إن هذا الدين صنع ذلك جميعه في فترةٍ من أقسى فترات التاريخ على الإنسان، سواء كان هذا الإنسان في الجزيرة يحيا، أم كان يعيش في مكان من أطراف المعمورة، بل لعلَّ الأمر كان أشد وأنكى في فارسَ وبلاد الروم، وهما الإمبراطوريتان اللتان كانتا على قمة عالم ذلك الزمان، ولذلك لم يكن عجيبًا أن ينهار سلطانهما أمام مبادئ الإسلام البالغة السموق.

ولكن ماذا حدث بعد ذلك؟! أما الإسلام فقد اشتد عوده، وأصبح يكتسب مع مرور الزمان قوة وعنفوانًا، ويتجدَّد جديدُه بالانتشار وبمقارنته بجميع النظم الأخرى التي تحكم المجتمعات، ولكن … ويا لهول لكن! هنا عاد كثير من المسلمين إلى الجاهلية الأولى، وعاد الاتجار بالمتعة يتسيَّد مجتمعات كثيرة، وأوشك تاجر المتعة أن يُعلن عن بضاعته في وسائل الإعلام الحديثة التي تنطلق الكلمة فيها، فإذا هي تتردَّد في أسماع العالم أجمع، وسقط الحياء عن هؤلاء التجار، ويوشك بعضهم أن يُباهي بتجارته.

وعاد المال إلى التحكُّم في المجتمعات الإسلامية، فهو السيد الذي لا سيد غيره، وأصبح القوي هو الذي يأخذ لا الذي يعطي، وأصبح الرفيع المقام هو الذي ينهب، لا الذي يعدل.

وتفجَّرَت الذرَّة، فإذا السلاح هو أداة المال في التحكُّم وفي وضع الأمم في منازلها التي يختارها لها المال بمعونة من السلاح، وحاربت الدولة المسلمة الدولة المسلمة، وفشا في الدول العربية سرطان حاكم لا يسمع عن حرب إلا زج بنفسه فيها، يعيِّن من يحلو له أن يعيِّنه، بلا فكر أو تدبُّر أو نظر إلى صوالح دولته أو جماهيريته، كما شاء أن يسمِّيها في جنونٍ أخرقَ مُضحكٍ مُبكٍ في آنٍ معًا.

وانقسمت جماعات الفدائيين على بعضها البعض، وحارب الأخ أخاه، وكلاهما نبتُ قضيةٍ واحدة، وهبَ حياته لها، ثم عدل عن ذلك، وسفح دماء نفسه من أجل وهم، وبلا مبدأ جلي، ولا سبب فيه لمحة من منطق.

لقد عاد مسلمون كثيرون إلى جاهلية أخرى جديدة هي أسوأ من الجاهلية القديمة، وأعظم رزءًا من كلِّ ما واجهته المجتمعات الإسلامية على مرِّ العصور.

ولكن الإسلام أقوى، وهو قادر أن يردَّ الغاوين إلى رشادٍ، والصابئين إلى مستقيم الصراط، والله غالب على أمره إلى أبد الآبدين.

الله ... الله فيما تكتبون!

يبدو أن عودة الحرية بعد غيبة طويلة جعل معالمها غير واضحة، وألقى على سماتها ظلالًا من ضباب، حتى أصبح بعض الكُتَّاب يخلط بينها وبين الفوضى الغوغائية ... وراح هؤلاء الكُتَّاب يبحثون لأنفسهم على حساب الحرية عن بطولات تدعو إلى الأسى والأسف والحزن. فما هم بكُتَّاب صغار، ولا هم في حاجة إلى هذا النوع المخرب من الكتابة، ملقين بمستقبل مصر إلى جحيم اصطلوا بسعيره أكثر مما اصطلينا ... وكواهم لظاه أكثر مما اكتوى به غيرهم ... وأحرقت نيرانه سنوات غالية من حياتهم ... وقد كنتُ أتصوَّر أيَّ شيء إلا أن يطلع علينا هؤلاء الكُتَّاب بدعوة إلى الثورة ... والدعوة منه موجَّهة إلى فئاتٍ هي أبعد ما تكون عن حب الوطن، أو مراعاة الله أو تحسب الضمير ... فبعض هذه الفئات ينتمي بولائه لغير مصر. وينتمي بعقيدته لغير الله بحكم المذهب الذي يدينون به.

وبعضٌ منهم آخَر كانوا السوط في يد الطغيان، وكانوا النار المُحرِقة، وكانوا المشاركين في الاعتداء على الأعراض والأموال والأرزاق.

وكانوا هم المُعيَّنين على خراب مصر التي ما زالت تعاني آثاره حتى اليوم، أتلك هي الحرية؟! علم الله أن الحرية براءٌ منهم إلى يوم الحساب ... أما الفئة الأولى فهي تركب خيول الحرية والديمقراطية، وإطلاق الرأي جاهدة أن تسعى بها إلى الحكم، ويومئذٍ لا كان هذا اليوم ولا شهده الوطن أبدًا، فلا حرية هناك، بل القهر والقتل، وسفك الدماء، وكتم الأنفاس، وإطلاق الفساد، وإعدام الدين، وإعلاء الإلحاد، والانتماء إلى الشيوعية العالمية التي لا ترى لأحد حقًّا في أن يكون وطنيًّا، ولا تسمح لصاحب دين سماوي أن يعبد الله.

وأما الفئة الأخرى فهي الفئة الباغية التي ضرب الخبث في تاريخها، فهي الفساد والإفساد، والقتل والتعذيب، وتحطيم القيم، وهدم كل ما هو سامق نبيل في حياة الإنسان.

عجيب مذهل أن يدعو كاتب مثل هذه الفئات أن تثور ... ومن أجل ماذا؟ من أجل الحرية ... يا لكِ من مظلومة أيتها الحرية! يركبك الراكبون ليقتلوكِ ... ويصيح بكِ الصائحون ليكتموا أنفاسك ... ويرفعوا أعلامك الوضَّاحة المُشرِقة ليمزِّقوها ويحرقوها، فإذا هي ذرات من رماد أو هشيم.

ويصيح الكاتب، الذي أربأ بقلمي أن يذكر اسمه حفاظًا مني على كرامته وقدره، أن الانتخاب بالقائمة النسبية عدوان على حرية الشعب، وقمع للديمقراطية واعتداء على قدسيتها.

ولا أدري من أيِّ مرجع دستوري جاء بهذا الرأي الساذج إلا أن يكون الكاتب يريد أن يصيح في غير ما داعٍ للصياح، ويتظاهر بالغضب من أجل الديمقراطية دون أن تكون الديمقراطية غاضبة ولا رافضة ولا هي تشعر أن القائمة النسبية تمس قدسيتها من قريب ولا بعيد.

وقد كنت أرجو — والكاتب ليس هيِّن الشأن — أن يرجع إلى المراجع الدستورية، ويتحرَّى الأمر قبل أن يجري قلمه بما جرى به؛ فليس الأمر صياحًا، ولا يكون الكسب في ميدان الرأي للصوت المرتفع ... ولا للضجيج الفارغ الخالي من البحث.

فليس الأمر هتافًا، وإنما هو علم ودراسة وتعمُّق وتفهُّم، والنظرة العاجلة البريئة من الهوى، والبحث عن بطولة زائفة تُدرك أن الانتخاب بالقائمة النسبية تعمل به دول ديمقراطية تعتبر من أعظم الدول في هذا المضمار، وحسبي أن أذكر سويسرا وألمانيا الغربية والبلاد السكندنافية وغيرها كثير. وأنا من الذين يرون أن الانتخاب بالقائمة فيه تحضُّر ينبغي لمصر أن تسعى إليه ... فالاختيار في الانتخابات بالقائمة النسبية يكون للآراء والمبادئ والأفكار، ولا يكون للأشخاص.

وهذا يجعل الناخب يدرس الآراء وينتخبها، ولا يعطي صوته للشخص لمجرَّد صلته به، سواء كانت هذه الصلة متمثِّلة في قرابة أو صداقة أو منفعة ... وفي ظل هذا الانتخاب المعتمد على القائمة تُمحى تمامًا أي مظنة لأي صلة بعيدة عن المصلحة العامة، ولا يكون هناك مجال لما يعرفه الكاتب تمام المعرفة، ولما يعرفه المصريون جميعًا من وسائل انتخابية بعيدة عن النزاهة كلَّ البُعد.

والأصل في النائب أن يكون نائبًا عن الدولة كلها، وليس عن دائرته فقط ... ولكن واقع الأمر يجري على عكس هذا تمامًا ... فالنائب المسكين مشغول ليله ونهاره بتعيين أبناء الدائرة، ونقلهم، وترقية أقاربهم، وإدخال أبنائهم للمدارس، والحصول على استثناءات لا

يحظى بها أفراد الشعب الذين لا يكون نائبهم بهذا النشاط الذي لا أعتبره أنا وطنيًّا بأيِّ حالٍ من الأحوال.

والنائب في الانتخاب المباشر يظل طوال فترة نيابته وعينه على الدائرة وأعيانها وأصحاب الجاه والسلطان والأصوات فيها، فإنْ أرضاهم فقد ضمن النجاح، وإنْ عجز فالويل له والثبور والسقوط في الانتخاب والخروج من رحمة الله!

ولست أنسى ذلك النائب الذي أغدق على أفراد دائرته من الأموال العامة، حتى اتُّهِم وقُدِّم للمحاكمة، وجاءت الانتخابات والقضية التي تتهم ذمته أمام القضاء، فإذا الهتافات في الدائرة تكتسحها ... حرامي ... حرامي لكن بنحبه ... وينجح المرشَّح المشكوك في نزاهته نجاحًا منقطع النظير.

أيرضى الكاتب عن هذا؟! أيرى أن الانتخابات في مصر على ما هي عليه الآن تتيح الفرصة للعالم والمثقَّف؟ أم هي تتيحها لأقرب المرشحين إلى الناخبين وأكثرهم خدمة لمطالبهم التي غالبًا ما تكون استثناءً وخروجًا على القانون واعتداءً على عدالة الفرص؟!

أيستطيع أستاذ في الجامعة يحتاج المجلس التشريعي إلى رأيه وعلمه ودراسته وممارسته أن يقترب من دائرة انتخابية وينجح فيها؟! ومن أين له هذا وهو مشغول بدراسته وبقضايا وطنه يتعمقها تعمُّق أستاذ عالم ... إنه إذا رشَّح نفسه يضمن السقوط الفادح إن شاء الله، وأغلب الأمر أنه لن ينال مائة صوت من آلاف الناخبين؟!

أيستطيع مثقَّف أن يُرشِّح نفسه؟ أيستطيع طبيب أو مهندس أو محامٍ أو اقتصادي؟ هيهات إلا أن يكون قد تنازل عن كثير من الوقت الذي كان يجب أن يكرِّسه لعلمه ليخدم مصالح الأفراد في دائرته، وإني لأعلم أنه بين أعضاء مجلس الشعب اليوم، وفي كل مجلس أساتذة عظماء، وكان في مجالس قبل الثورة ساسة عباقرة، ولكنهم في كل المجالس كانوا قلة نادرة، ومصر اليوم تحتاج أن تكون مجالسها التشريعية زاخرة بكنوزها الثقافية؛ فهي اليوم أشد ما تكون حاجة إلى علم العالم وجرأته في الحق وقدرته على أن يُعلن الرأي في سبيل مصر، لا من أجل أشخاص في مصر.

والانتخاب بالقائمة النسبية لن يُبعد الموجودين اليوم، فكل حزب لا يمكن أن يستغني عن النابهين فيه، ولكن المؤكَّد أن عدد النابهين سيزداد، وتصبح المجالس التشريعية قادرةً على أن تواجه الأزمات التي تُعانيها. فيا أيها الكاتب رفقًا بمصر، ورفقًا بالحرية، ورفقًا بالديمقراطية، واتقِ الله فيما تكتب ... فإن الكاتب أولى الناس بأن يخشى الله؛ ولاءً لوطنه، ورعايةً لحقِّه، وشكرًا لرب العرش أن حمَّلَه أمانة القلم.

الثور المذءوب!

سعار أصابَ الرجل منذ البواكير الأولى من حياته، أنفق عمره يتعلم لغات غير لغته العربية، وله من الوقاحة ما يحاول به أن يكون أديبًا في اللغة العربية، وانتهت حياته أو أوشكت، ولكن المسكين فشل أن يكون بين قومه أديبًا، وفشل أن يكون في اللغات التي تعلمها وأتقنها شيئًا مذكورًا أو غير مذكور.

إنه ثور أصابه سعار الذئاب المفترسة، يُريد أن يحطِّم الحياة من حوله، ولكن لأنه ضئيل القَدْر، هيِّن الشأن، حقير النفس، وضيع الفكر، لم يحطِّم إلا نفسه.

همَّ أولَ ما همَّ باللغة والتراث العربي، وراح يحارب كلَّ ما هو أصيل في أدبنا وتراثنا، ونظره الكليل المنحرف مُصوَّب على أن اللغة العربية هي لغة القرآن، وهو يظنُّ بما ركبت عليه نفسه من اجتماع الثور والذئب أنه يستطيع أن يحطِّم اللغة ليبعد الناس عن القرآن وعن الدين، واستقبله فيما تكالب عليه الفشل الوبيل، وأحسَّ الناس بما في هجمته من سعار، فرفعوا المصاحف على الرءوس، وألجموه بما لا يُطيق، وانهالوا عليه رجمًا، فإذا الثور فيه والذئب جميعًا يتمخضان عن كلب أجرب يضع ذيله بين فخذَيه الخلفيتَين، ويسارع في تلصُّص المجرمين يعدو باحثًا عن مخبأ أمين يلعق فيه جربه وجراحه، ويصمت حتى يهدأ ما ثار من الناس، وحتى ينثني عنه الراجمون، وينساه الذين يقولون: لا إله إلا الله محمد سيد الخلق رسول الله.

فإذا هدأ الضجيج عاد الميدان مرة أخرى يحاول في غباء الثور وفي سعار الذئب أن يبحث عن قنصٍ آخَر بعد أن عزَّه أن يهاجم لغة القرآن، ورأى بِشَائه بصره ومريض بصريته أن يهاجم مَن يجلُّه المسلمون من عمالقة العلماء وأشراف الفقهاء، وراح يرمي عليهم سخائمه، ويختلق عنهم تهمًا لم يسمع أحد أنها يمكن أن ترقى إلى أعتابهم، ولكن ذنبهم الوحيد أن العرب المسلمين يذكرون أسماءهم في إجلال وإكبار وتقديس ... وذنبهم

الأكبر عنده أن كل الفقهاء الذين جاءوا بعدهم تتلمذوا عليهم أو على تلامذتهم، بل إن أعلام الوطنية والإخلاص القومي بأفكارهم إلى تعاليمهم، وهذه ذنوب عند الثور المذءوب لا غفران لها. فماذا عليه لو أنه صدم فيهم مشاعر الجماعة، وحاول أن يُزيل هذه الهالة عن أفذاذ لم يذكرهم التاريخ إلا بما يشرف الرجال ويرفع صيتهم على أحقاب الزمان.

ومرة أخرى تداولته الحجارة، وانهال عليه المسلمون والعرب والوطنيون بسهام الحق يردونه عن قوم يكنون لهم الاحترام والتوقير، ويلعنونه.

ويحاول الثور المذءوب أن يلجأ إلى حرية الرأي، وإلى أن كلَّ إنسان ينبغي أن يتمكَّن من إبداء رأيه مهما يكُن شأن هذا الرأي، وهو قول حق، ولكنه يستر عند هذا الرجل بالذات باطلًا فادحًا. فأولئك الذين يجرح مشاعرهم بهذه الوحشية، ويسبُّ لهم أعلام دينهم، لا يستطيعون أن يمنحوا أنفسهم الحرية في مهاجمة ما يقدِّسه هو وأمثاله من الذين يحاولون أن يحطِّموا المساجد وأشياخها على رءوس مرتاديها ومريديهم؛ لأن ديننا ينهانا أن نثير الفتن بين الناس، والفتنة عندنا أشد من القتل، بينما هي عند الثور المذءوب هدف حياة ونشيدة عمر، وهب نفسه لها لا يريم عنها ولا ينثني.

وبلغت به الوقاحة أن هاجم القرآن نفسه، وحاول أن يرد آياته إلى عصور سابقة عليه، وحاول أن يفسرها، وهو أبعد ما يكون عن دراسة أعماقها أو لغتها أو مفاهيمها أو أسباب نزولها.

والحرية هي كرامة الإنسان، ولكن مَن قال إن الحرية هي تحطيم الأديان وامتهان كرامة الجماعة، والاعتداء على مقدسات الشعوب وما آمنوا به؟!

فصلة الإنسان بربه صلة لا يعلمها إلا الإنسان نفسه وعالم الغيب والشهادة، والاعتداء على هذا الحرم تحطيم للحرية نفسها إلا أن تكون الفتنة هي بغية المعتدي، والوقيعة بين الأديان هي هدفه الذي يتغيَّاه ويرصد حياته لبلوغه، ومرة أخرى يفر الثور المذءوب كلبًا أجرب يلوي ذيله بين فخذَيه، ويتلمَّس مَخْبأً يرد عنه عاديات الهجوم.

ولكن هل من ينتهي ... هيهات ... إذا كان قد خاب فألُه، وحبط مسعاه مع الدين وجهًا لوجه، ومع فقهاء الدين بالإعلان، فما له لا يحاول أن يهاجم شعراء العربية وكتَّابها أجمعين، ويجعل من ذكراهم عفنًا، وحينئذٍ يقول: هذا رأيي، وما عليَّ من بأس أن أرفض كلَّ هذا الشعر وكلَّ الأدب، وهذا حقه لا شك في ذلك، ولكن كشأنه يستر به باطلًا حقيرًا.

فإن الناقض حين يرفض شاعرًا عملاقًا أو كاتبًا شامخًا يتعيَّن عليه أن يذكر عيوب هذا الشاعر أو ذلك الكاتب، وما الذي يدعوه إلى رفضه، ولماذا هو أكذوبة في أدبنا وإلا

كان الرفض وليد أغراض أخرى، وخبيئات نفس مريضة ترمي برفض الشاعر أو الكاتب إلى رفض اللغة التي أكبرها هذا الشاعر أو ذلك الكاتب فأكبرته، والذي أكرمته ورفعها فرفعته.

إن الأفذاذ من شعراء الأمة وكتَّابها هم تاريخ أدبها، وهم الرايات الخفَّاقة التي تسافر عَبْر الأجيال، تحمل الخلود لبلادهم على مرِّ العصور، وتحمل أجيالهم على أعناق الزمن إلى سائر الأجيال.

وقد كان تشرشل الزعيم الإنجليزي على وعي عظيم بشأن الشعراء حين قال: لو لم يكن لبريطانيا فضل إلا أنها ولدت شكسبير لكان حسبها.

وما زال الفرنسيون يَتِيهون فخرًا بكورني وراسين وهيجو وبودلير، وبكتابها من أمثال: بلزاك ودوديه وأناتول فرانس وغيرهم، وما زالت ألمانيا ترفع علم جيته وزفايج وعظماء شعرائها خفَّاقًا على كل الأجيال، وكذلك تفعل كل الدول.

فما بال هذا الثور المذءوب يريد أن يُنكِّس أعلام العمالقة من شعرائنا وكتَّابنا، ويرفض أي شاعر أو كاتب لم يشهد هو ميلاده، ولم يعلن هو شاعريته، ويمنحه هو صك الوجود، إلا أن يكون متشبِّثًا بتحطيم لغتنا في وهمٍ منه كبير أنه يستطيع أن يُحطِّم بها ديننا وقرآننا؟! ولكن ربنا قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وهو طبعًا لا يُؤمن بما قال ربنا. ولكن ألا يؤمن بما تم فعلًا وبما يرى من أن القرآن بقي ألفًا وأربعمائة سنة ونيِّفًا لم يتغيَّر منه حرف واحد، ولكن على قلوبٍ أقفالها، وعلى البصائر منه مغاليقها. فليمكر ما شاء له المكر، فإنا — نحن المؤمنين — نعلم كلَّ العلم أن الله خير الماكرين.

المحافظات وفلسفة الإعلان

خرج علينا العالَم الغربي بنظرية أدبية ذات أسماء كثيرة، منها العبث، ومنها اللامعقول، وكلها تؤدِّي إلى معنى واحد هو البُعد كلَّ البُعد عن المنطق والعقل.

وسار في ركب النظرية كثير من شبابنا، ووقع في أحابيلها جيل كثير بالغ في الإعجاب بها، حتى لقد أنشأ بعضهم مجلة خاصة لهذا العبث لم تستطع أن تقيم في الحياة أكثر من عددين أو ثلاثة، ثم اختفت تمامًا. وأذكر أنني حاولت أن أفهم شيئًا من هذه المجلة فاستعصى عليَّ الأمر. ولكنني كنت أشاهد كُتَّاب هذا اللون يقرءون لبعضهم البعض، ويتبادلون عدم الفهم مع تبادل الإعجاب.

وقد كتب في هذا الشكل أستاذنا توفيق الحكيم ونجيب محفوظ، فجنحا إلى طريق آخَر، فقد استطاعا أن يجعلا المعنى الإجمالي لأعمالهما واضحًا، وإن كانت سطوره غير واضحة. وبهذا وصلا إلى المعقول عن طريق اللامعقول. وقد أغراني هذا الذي صنعاه، فكتبت في هذا الشكل قصتَين أو ثلاثًا، لا أذكر.

وطغى هذا الشكل طغيانًا كبيرًا على المسرح، وكثرت الأعمال في ميدانه، وتكاملت له مدرسة.

وكان لي فيه رأي: أنه يصلح أن يكون موضوعًا لعمل أو اثنين أو ثلاثة، ولكنه لا يستطيع أن يكون نظرية أدبية ثابتة تستمر على مدى أجيال. وأحسب أن ما توقَّعتُه قد حدث فعلًا، وماتت النظرية، وعدل عنها روَّادها بعد أن اختانت من حياة الشباب فترة غير قصيرة من حياتهم الأدبية.

ومجمل النظرية فيما أحسب أن هذه الحياة عبث، وأن التعبير عن العبث لا يكون إلا بالعبث. وكما ترى تصلح هذه القالة أن تُقال وتُسمَع مرة أو اثنتين أو ثلاثًا. ولكنك

إن ظللت تقولها في كل عمل عزف عنك الذوق الأدبي، ورفضت نفوس المستقبلين أن تستجيب لك.

وهكذا ماتت النظرية حتى لم يعُد أحد يسمع عنها شيئًا.

ماتت النظرية في أدب القصة والرواية والمسرح، واتجه روَّادها إلى الأعمال الأدبية المعقولة. بل لقد بالغ بعضهم ورضيَ أن يكتب الرواية البوليسية، وهي أقل الروايات شأنًا في ميزان الأدب، وارتأى هذا البعض أن الرواية البوليسية أكثر قيمة بالنسبة إليه وللقارئ جميعًا.

ماتت النظرية إذَن قبل أن تعيش، وانصرف عنها كُتَّابها، ما دام الكُتَّاب توقفوا عن كتابتها، فالنتيجة الحتمية أنها أصبحت بلا قرَّاء. فلا يمكن عقلًا أن يكون هناك قرَّاء لشيء ليس له كُتَّاب. وربما كان هذا القول يعكس مثالًا رائعًا لأدب العبث، وقد رأينا في ظل النظرية مَن يقرأ ورقًا أبيض لا كتابة فيه، أو ساعة بلا عقارب، أو غير هذا مما لا يسيغه منطق أو عقل.

ماتت النظرية في الفن الأدبي، ولكني أراها ما تزال تعيش أقوى ما تكون الحياة في شتى مناحي حياتنا العامة.

وإلا فبربك اذكر لي سببًا واحدًا يجعلني أرى في تلك الإعلانات التي تنشرها المحافظات أمرًا معقولًا يسيغه منطق أو يرضى به عقل.

ما هذا الذي تصنعه المحافظات؟! ومن أيِّ أموال ينفقون على تلك الإعلانات التي ينشرونها في الصحف اليومية؟!

وقد أسيغ أن تحتفل المحافظات بعيدها القومي في حفل وسمَر يُعيد إلى أبناء المحافظات ذكرى أمجادهم وأمجاد أبناء المحافظة من العظماء.

وقد يصلح أن تخلق المحافظة الأسباب للترفيه عن بنيها في وقدة الحياة الثقيلة الخطى الشديدة الوطأة. فالنفوس في أيامنا هذه تحاصرها أنواع من الهموم شتى، وتحيط بها ألوان من الأسى لا يقف لها عدد، أو تنتهي بها حدود، وحسبك ما نعانيه من ضيق الطريق عند الموارد، واتساع الطرق وانفساحها عند المصارف والأنفاق. فلعلَّ حفلًا أن يُنسي همًّا، وإن كان من المؤكَّد أنه لن يُزيحه.

فلسفة الحفلات إذَن قد تجد لها عند العقل مبرِّرًا، أو هي واجدة باليقين عند النفوس قبولًا.

ولكن ما قصة هذه الإعلانات التي نراها في الجرائد اليومية؟! الذي أعرفه أن الإعلان يكون في أغلب الأمر صادرًا من تاجر يريد أن يبيع بضاعته، أو مالك لعقار أو منقول يُريد أن يستبدل بالمال السائل ما يملكه من عقار.

ويكون الإعلان في حالات قليلة من مشترٍ يبحث عن شيء لا يجده في مألوف حياته اليومية، ويريد أن يعلن عن حاجته وليشتري هذا الذي يريد شراءه منقولًا كان مبتغاه أو كان عقارًا.

هذا هو ما أتصوَّرُه في الإعلانات. ولكنني — كعادتي دائمًا — أتشكَّك في كل معلومة أنا غير متخصِّص في شأنها، وأنا في باب الإعلان لا أعرف شيئًا على الإطلاق، فتلك صناعةٌ أنا بعيد عنها كلَّ البُعد. ومن أجل هذا لم أطبع لنفسي كتابًا على نفقتي الخاصة قط، وما أظن أنني فاعل ذلك أبدًا. وقد جعلني شكي فيما أعلمه عن الإعلان ألجأ إلى الأستاذ الأخ الصديق أبو السعود إبراهيم، أمين مكتبة الأهرام، أستعينه أن يرسل إليَّ تعريفًا عن هذه المادة، وإني ناقل إليك ما أرسل:

الإعلان وفلسفته هو عملية اتصال تهدف إلى التأثير من بائع إلى مشترٍ، حيث يفصح المُعلِن عن شخصيته، ويتم الاتصال من خلال وسائل الاتصال العامة، أو هو فن إغراء الأفراد على السلوك بطريقة معيَّنة تؤدِّي إلى تمام الصفقات المنشور بشأنها الإعلان.

هذا ما يُعرف به الإعلان إذَن، فأنا غير بعيد عن فلسفته. وما أحسب أحدًا يبتعد عن هذا المعنى فيما يدريه هو بخبرته عن الإعلان.

إذَن، ما خَطبُ هذه المحافظات المعلنة؟ وعن أي شيء تُعلن؟ إنه من الطبيعي والمعقول أن تنتهز المحلات التجارية فرصة عيد المحافظة لتُعلِن عن نفسها وتروِّج بضائعها، وإنما سؤالي وعجبي عن الإعلان الرئيسي للمحافظة تتصدر إعلانات التجَّار جميعًا.

أليس هذا الإعلان يثبت أن نظرية العبث وغير المعقول ما زالت تسيطر على بعض الناس؟!

إنه من المؤكد أن المحافظة لا تنوي أن تبيع نفسها لأيِّ مشترٍ مهما يكُن شأنه.

وهي باليقين ليست سلعة، بل هي باليقين أيضًا لا مالك لها، فهي جزء من دولة ذات دستور وسلطات تنفيذية وتشريعية وقضائية، ويَسري عليها ما يَسري على ربوع هذه الدولة في حدودها الأربعة.

فعن أيِّ شيء تُعلِن المحافظة إذَن؟!

أتراها تريد أن تُعرِّف الناس بها؟!

فتلك إذَن مصيبة لا كاشف لها إلا الله القاهر فوق عباده. أم تراها — وأنا لا أدري — تعلن عن نفسها لتعرِّف الناس باسم محافظها؟!

وإن كان الأمر كذلك — وما أحسبه إلا ذلك — فأي فائدة تعود على السيد المحافظ أن يقرأ الناس اسمه في إعلان؟!

إن الناس تحب أن تقرأ أسماء الناس — حتى المحافظين — حين يقومون بعمل يستحق أن يُذكَروا من أجله، ولا يحب الناس — وهم مُحِقُّون — أن يقرءوا أسماء الناس لا لشيء إلا لأنهم في وظيفة مُعيَّنة.

فإننا إذا ما ذكرنا اسمًا دون أن نذكر له فعلًا مُعيَّنًا نكون بهذا قد كتبنا جملة غير مفيدة نُقش فيها المبتدأ دون أن يُذكر الخبر. ولا يمكن أن تستقيم جملة بغير مبتدأ وخبر. فأيُّ معنًى يمكن أن يصل إلى عقولنا إن قلنا «نعمان» مثلًا ولم نقُل ماذا فعل نعمان هذا لنذكره. واكتب نعمان ما شاء لك هواك من عدد المرات فإنك مهما تكتب تظل غير مفهوم عند مَن تخاطبهم، وكأنك لم تقُل شيئًا إلا أنك زدتنا بنعمان جهالة.

وقد أرى في هذا الإعلان أن المحافظ يرفع إلى السيد الرئيس تهنئاته وإجلاله ودعاءه.

وغريب أن يكون المحافظ — هو بدرجة وزير وقد لقي الرئيس عدة مرات — على غير علم وافٍ بأخلاق رئيس الجمهورية.

أبعد ما يكون حسني مبارك عن الرغبة في التأليه، وأكثر الناس عزوفًا هو عن تحيةٍ تُقدَّم بغير داعٍ، أو تهنئة تسعى إليه بلا مناسبة.

متواضع هو كلَّ التواضع، إنسان عميق الشعور بالإنسانية، أزهد ما يكون في البريق وفي المظهر، أعرف الناس أن منصبه جهد وعمل ومسئولية ومشقة، وليس منصبه — كما يتخذه آخَرون — وسيلة لدعاية أو استجلابًا لمديح أو طريقًا إلى تكبُّر.

يَعرف رئيس الجمهورية الدافع خلف كلَّ هتاف فردي، والباعث الذي يتخفى وراءه أيُّ تبجيل، بل ويعلم أن بعض الناس يطلبون أن يقابلوه لمجرَّد أن يقولوا في مجالسهم إنهم قابلوا الرئيس، ويعرف أن هناك أثرياء وذوي ثراء باذخ أصابوا من المال ما شاءوا، ولم يبقَ لهم إلا أن يتخذوا سمت أصحاب النفوذ والكلمة المسموعة، فهم يحسون — وهم مُحِقُّون — أن المال وحده لا يصنع للفارغين قيمةً، ويعرف الرئيس أن كثيرًا من هؤلاء يحاول أن يلقاه ليقنع نفسه أنه بلغ من الحياة تلك القيمة التي يفتقدها في ذاته فيفقدها.

ففيمَ إذَن يحاول المحافظ أن يُقدِّم التحية للرئيس؟! علم الله أن الرئيس يرى أن إنتاج وحدة وحدة من سلعة مصرية أحب إليه من ألف تحية لا معنى لها، ولو أن المحافظ

أنفق الوقت الذي بذله في تدبيج التحية والمال الذي أنفقه من الخزانة العامة يعود على إقليمه الذي هو جزء من مصر بشيء من الخير، لكان هذا أجدى له وأنفع، ولكان فعله حبيبًا إلى رئيس الجمهورية، في حين يكره الرئيس أن يتخذ المحافظ من اسمه وسيلة لإعلان عن لا شيء، فإن الرئيس حسني مبارك يعمل نهاره وليله ليحطِّم اللافتات المرفوعة على الفراغ، ليحلَّ مكانها عمل وجهد وإتقان وجدية وصدق وشرف، والله على ما أقول شهيد!

أعزك الله يا عزة

جاء في الأخبار تحت عنوان «طفلة تنقذ ثلاثين مواطنًا من الموت» الخبر التالي أسوقه كما ورد: «كتب — محمد رجب: أنقذت طفلة في الثامنة من عمرها ثلاثين مواطنًا ومواطنة من الموت ... دخلت الطفلة عزة محفوظ مكتب العقيد أمين بهجت، مأمور قسم الجيزة، وأبلغته بأن المنزل المجاور لمنزلها خلف مبنى القسم على وشك الانهيار، وأنها سمعت والدها ووالدتها يتحدثان عن سماع أصوات غريبة تنبعث من جدرانه التي تهتز، وقالت إن والديها قرَّرا عدم إبلاغ الشرطة خوفًا من سكان المنزل ... انتقل المأمور والضابط للمكان، وحينما تأكَّدا من صدق الطفلة ... قرَّرا إخلاء المنزل فورًا من سكانه ... وبعد دقائق من الإخلاء انهار المنزل وبدأ التحقيق.

كانت الطفلة ترتجف وهي تدخل من باب القسم ... لاحظَ المأمور أن نظراتها يملؤها الفزع ... اتجه إليها ... سألها عمَّا تبحث ... قالت له إن صديقتها الطفلة تسكن بهذا المنزل الذي سمعت من والدتها أنه سينهار بين لحظة وأخرى، وأنها تخشى على صديقتها من الموت، وتخشى أن يعلم والداها بحضورها للقسم ... تردَّدَ المأمور في تصديق الطفلة، وأمام إلحاحها وبكائها المستمر اصطحبها ومعه المقدمان ماجد الباز وعمر الفرماوي رئيس المباحث ... وتبين أن المنزل متصدِّع الجدران ومائل قليلًا، فقرَّروا إخلاءه فورًا ... وبعد دقائق انهار المنزل، وتبيَّنَ من المعاينة المبدئية أن أسقُف المنزل من خشب النخيل.»

وإلى هنا ينتهي الخبر تقريبًا ... وأنتِ يا عزة لا تدرين أية سعادة غامرة أدخلتِها إلى قلوبنا، فقد رأيتُ فيكِ أملًا من بعد يأس قاتم خيَّم على حياتنا ... فأنتِ يا بنية استطعتِ بعملك الذي صنعتِه عن فطرة أن تصبحي ابتسامةً مُشرِقةً على قوم طالَ بهم الزمن وهي تحسُّ المرارة والأسى.

إن عزة لم تلتقِ بالشرطة من قبلُ ... وواضح من الخبر أنها كانت خائفة هالعة مرتعشة من الإقدام على هذه المخاطرة التي لا تدري إلى أيِّ مصير تقودها.

زادها خوفًا وهلعًا ذلك الحديث البعيد كل البُعد عن الانتماء الإنساني والذي بلغ مسامعها من أمها وأبيها.

وإن كان الخبر لم يأتِ من الحديث إلا بعجالة سريعة، إلا أنه من المؤكَّد أن الحديث كان مستفيضًا متطاولًا. وما له لا يكون ... زوجان في بيتهما والأحداث التي يمكن أن تكون مادة تسلية قليلة نادرة، وها هي ذي فرصة متاحة للحديث الوافر. تكلَّما عن الناس الذين يقطنون بالمنزل، والشروخ التي داهمت المنزل، ومتى داهمته، وكيف سكتوا عنها، والوالدان يرفضان أن يبلِّغا عن المنزل المتهالك، ويطمئنان ضميرَهما أنهما إنما يصنعان ذلك حتى لا يغضبا سكان المنزل من أصدقائهما ... إذَن فالأبوان الكريمان يخافان أن يغضبا قومًا، ولا يخافان أن يقتلاهم أجمعين. ولا شك أن الأبوَين في حديثهما تخوَّفَا أن يذهبا إلى القسم حتى لا يشغلا وقتهما ويضيِّعا يومًا بأكمله في الإبلاغ ومصاحبة الشرطة إلى المنزل.

إن الأبوَين من ذلك الجيل الذي نشأ في الأيام الداكنة من تاريخ مصر، والتي جعلت الناس يشعرون أن مصر غريبة عن المصريين وهم عنها غرباء، يوم قال الحاكم إنَّ شأني أنا وشأنكم أن تقبلوا رشوتي بالخبز الرخيص والتعليم المجاني في جميع مراحله، وأن تهملوا في مصانعكم ووظائفكم ما طاب لكم الإهمال، ولن يمسكم أحد بسوء، بل ولكم أيضًا أن تكون نسبة الجهلاء من فلاحين وعمال خمسين في المائة، ويشتركوا في التشريع للبلاد وما للناس، وقد كان التشريع يصدر من الحاكم المنفرد، ويمرُّ بالمجلس النيابي لإقراره، وليس لمناقشته.

جيل ساومه الحاكم، واشترى منه حقوق المواطن الإنسان، ودفع له الثمن تخريبًا للوطن وتدميرًا لكرامة مصر واقتصادها.

إنه جيل تعوَّد ألا يكون صاحب رأي في أيِّ شيء يخرج عن نوع طعامه في بيته، وفي بيته فقط، جيل بعيد كلَّ البُعد عن الحياة العامة وما يضطرب فيها، وما يمس شئون الناس من ناسهم الذين يحيون من ماء نيلهم، ويأكلون من أرض مصرهم. شاه زمنًا!

والقاطنون في البيت ماذا نحن قائلون لهم؟ أنلومهم أنهم لم يبلغوا عن الحال الذي صار إليه بيتهم؟ من السهل أن نلوم، وليكن. أترانا كنا نصنع غير ما صنعوا؟ أسرات بأكملها يضمها بيت متهالك، إن تركوه فهم نهب للتشريد والضياع في تيه العالم أجمع

... إن سكان هذه البيوت جميعًا أحياء وأمواتًا ضحايا القانون الذي أصدره الطاغية في الستينيات لتخريب العلاقة بين ملَّاك البيوت وسكانها، وجعْل الملَّاك يتوقفون منذ صدوره عن البناء توقُّفًا تامًّا، وها هي ذي النتيجة اليوم ... مقاتل جماعية لسكان البيوت المتهالكة، أو تشريد لَمن تركوا المنازل المتصدِّعة، وضياع كامل للشباب الذي يريد أن يبدأ حياته ويكوِّن أسرة ... هذا الضياع الذي أدى إلى وحشية بعض الأبناء لتخلص لهم بيوت والديهم.

أما عزة ابنة الأمل وبنت الأرض الحرة والهواء النقي فقد غالبت كل هذا، وذهبت وحدها إلى القسم ترتجف، ولكنها تغلَّبَت على خوفها لتنقذ صديقتها في البيت المجاور، فأنقذت معها سكان البيت أجمعين. أنتِ يا عزة تشعرين أن الصداقة تستحق ما تعرَّضتِ له من خوف وحرج، وأنتِ يا عزة تشعرين أنكِ تنتمين إلى الناس حولك الذين هم وطنك، وأنتِ يا عزة ضربت المثل الرفيع لكل المصريين، فلو أن الوزراء اتخذوا قراراتهم بنفس الجرأة التي اتخذت بها قرارك لصلح حال الاقتصاد المصري، واستقام المعوج من الأمر. فنحن الدولة الوحيدة في العالم التي تعرف أمراضها، وتعرف دواءها، ولكنها لا تحاول أن تستخدم الدواء لتقضي على المرض. ما زلنا نصر على مجانية التعليم الوهمية ونحن نعرف الخراب المحيق بمصر وبالتعليم من هذا الداء، وما زلنا نصر على أن تكون نسبة العمال والفلاحين خمسين في المائة، ونحن نعلم أننا بهذا نخرب التشريع المصري والكرامة المصرية بقانون لا مثيل له في العالم أجمع، ونحن نصرُّ أن ينال الدعم الأغنياء مهما يتفاقم حجم غناهم. ونحن مُصِرُّون ألا يعمل العامل، ثم يظل في عمله.

ولو أن أعضاء مجلس الشعب يا عزة أدركوا أنهم مسئولون عن مصر جميعًا وليس عن ناخبيهم وأقاربهم فقط، ولو أنهم فعلوا مثلكِ فقدَّموا الصالح العام على الصالح الخاص؛ لكان حال مصر غير هذا الحال. ولو أن الموظفين أدركوا أنهم ينبغي أن يتقنوا عملهم مهما يكُن أجرهم ضئيلًا، وأن القيام بالواجب في ذاته قيمة عُليا أدركتِها أنتِ يا عزة؛ لأصبح وجه مصر جديرًا بتاريخها العريض.

ولو أن كل فرد في مصر يا عزة أحسَّ أنه مسئول عن أخيه كما أحسستِ أنتِ أنكِ مسئولة عن صديقتكِ لاستطعنا يا عزة أن نعلو فوق المِحَن، ونسمو فوق الأزمات، وليغير الله ما بنا لأننا غيرنا ما بأنفسنا.

وبعدُ يا عزة ربما كنت فيما أقول حالمًا في وادي الآمال، لكنكِ أنتِ — يا بُنيتي — قد فتحتِ لي الباب إلى هذا الوادي، وما دامت مصر قد أنبتتكِ فما لي لا أرجو أن يكون جيلكِ

كله مثلكِ؟! فإنْ صحَّ هذا الرجاء فإن لنا — نحن المتفائلين — أن نتوقَّع لجيلكِ هذا أن تكون أيامه كلها إشراقًا. وما لي يا بنيتي ألا أرجو؟! فإن لكل ليل صباحًا، وقد كنتِ أنتِ تباشير هذا الصباح!

إلى هؤلاء وحسبي هُم

أصدر وزير الداخلية بيانًا أن هناك عناصر شيوعية تعمل في الخفاء، وقد يبدو هذا غريبًا، وهو في نفس الوقت غير عجيب ... أما أنه يبدو غريبًا فذلك لأن قرَّاء هذا النبأ سيتساءلون: فيمَ يعمل الشيوعيون في الخفاء ولهم جريدة تصدر في مصر تحمل كلَّ آرائهم، وتحمل من أفكارهم ما يصدم الشعور العام، ويثير النفوس الشريفة وهم لا يكفون بجريدتهم عن تمزيق جروح الناس وتأليبهم على النظام العام وهم يقولون ما يقولون في علنٍ وفي غير مواربةٍ ولا غموضٍ؟! ففيمَ — إذَن — حاجتهم أن يعملوا خفية؟!

إلى هذا قد يذهب مَن لا يعرف تاريخهم وأخلاقهم وتركيبة مذهبهم وتكوين نفوسهم. أما غير هؤلاء — وأنا منهم — فنرى أن عملهم السِّري لا غرابة فيه، فكما لا يعيش السمك إلا في الماء لا يعيش الشيوعي إلا تحت الأرض، وإني أعتذر للسمك أنْ شبَّهتُهم به ... فإن خياشيم الشيوعي لا تستطيع أن تشم من الهواء إلا فاسده ... فهناك تحت الأرض في سراديب العفن الذي يعيشون فيه ... يدبِّرون المؤامرات ويختلقون الشائعات، ويبتكرون التهم على الشرفاء، ويمزِّقون السمعة الواضحة النقاء، ويعلنون فيما بينهم سخيمتهم على كلِّ مَن يتقي الله والضمير فيما يقول أو يفعل أو يتغيا.

وهناك في سراديب العفن يبيتون أمرهم بالليل الدائم الذي يعيشون فيه على الإيمان بالله، يحاولون أن يزعزعوا رواسخه الشمَّاء في نفوس المؤمنين، في هذا الخفاء تدبر الكوارث التي لا يستطيعون أن يعلنوا عنها في الصحيفة المعلنة على الناس، وإنما تعمل الصحيفة على تهيئة الرأي العام لما يدبره المتآمِرون المستخفون في غياهب الأرض من مؤامرات ضد الدين والوطن والشرف والنقاء والحرية.

فأرض الشيوعية لا تكون إلا في مستنقع العذاب والانسحاق لجماهير الناس، ولا ينمو نبتها إلا بدماء البشر وعصير كراماتهم.

ورجال الأمن هم المسئولون عن أمر هؤلاء، ونحمد الله أن وزير الأمن عندنا يقِظ على علم بما يفعلون، ونحمد الله أن عينَيه قد اخترقتا عليهم سراديبهم وكشفت عنهم خفاءهم.

ولكننا — نحن الشعب — نجد الأجواء من حولنا تفوح منها في كثير من الأحيان ريح الشيوعية ... وإن كان هؤلاء المتآمرون يدبِّرون أمرهم تحت الأرض، فإن هناك قومًا آخَرين يتسترون عن العلن بالتنكُّر في أزياء بريئة، يخفون تحتها أسلحة فاتكة تنفذ إلى العلَن في حياتنا بخبث أسود، وربما كان الذين تحت الأرض هم الذين يرسمون الأدوار ويحدِّدون الأعمال لَمن هم على سطح الأرض، فإن أولئك يتولون من أمورنا نواحي هي غاية في الخطورة ... وهم يبثون الدعاية الشيوعية مستخفية في كلام ظاهره بريء، ولكن الحقيقة فيه تحمل السم الزعاف ... وقد يتنكَّر هذا الكلام في زي حديث بالراديو أو التليفزيون، وقد يتخذ وجهًا آخَر في تمثيلية أو مسرحية يتنبَّه للشيوعية فيها بعض الناس، ويسري السم في نفوس البعض الآخَرين دون أن يدركوا أنهم تجرَّعُوه وسرى في دمائهم، ففي أجهزة الإعلام فئة ليست قليلة من الشيوعيين ... وفساد الفرد منهم يكفي لفساد الآلاف؛ لأنهم متصلون بالجماهير، ولهم في الحديث إليهم تمرُّس ودُربة ... ولهم في دس السم الشيوعي بأعمالهم وسائل وطرق ... والشيوعيون أيضًا منتشرون في الوسائل الأخرى لمخاطبة الجماهير، وقد يتنكَّر بعض منهم بكثرة الحديث عن الإيمان، أو بإصدار كتب عناوينها الإيمان، وموضوعها الإلحاد، وهؤلاء يتخذون من وظائفهم الرسمية درعًا يدارون بها عن أنفسهم المظنة لأن المتعاملين معهم يسترون عليهم ليبلغوا هم هدفهم الذي يسعون إليه من نشرٍ أو إذاعةٍ أو تليفزيونٍ ... وهناك أساتذة في الجامعات يمسكون برقاب الطلبة العزل الذين لا يملكون سلاحًا أمام السلاح الفاتك الخطير الذي يشهره الأستاذ الشيوعي عليهم من إسقاط في الامتحان وإضاعة للمستقبل وتدمير للحياة ... وهؤلاء الأساتذة الشيوعيون لهم جرأة على الحق لا تتأتى إلا لَمن ألحد بالله والوطن وبالقِيَم الرفيعة وبالخلق الأسمى وتدلَّى إلى حضيضٍ لا يبلغه إلا مَن كان مثلهم شيوعيًّا.

وبعدُ فإن عملي في الحياة أن أنبِّه الناس إلى هذا الوباء، فإن كانت كلماتي هذه ستستطيع أن تجد سبيلها إلى الناس فيصبحوا على حذرٍ مما يدسه الإعلاميون الشيوعيون من سمٍّ لهم، فما حيلتي مع هؤلاء الطلبة المغلوبين على أمرهم والأساتذة يسدون عليهم منافذ الحياة؟!

أحسب أنه ليس هناك من سبيل إلى هؤلاء الأساتذة إلا أن يكون زملاؤهم من المؤمنين بالله وبالوطن على بيِّنة بأمرهم.

وأن تكون مجالس الجامعات على وعي بما يصنعه هؤلاء الشواذ، فيقمعوا جبروتهم، ويقلِّموا أظفارهم السفاكة، ويحدوا من بطشهم الرهيب.

ولقد أعلم أن هناك مَن يتساءل عن هذا الحديث الذي نسوقه عن الشيوعية، فإن كان للمؤمنين فهم ليسوا في حاجة إليه، فلن يستطيع الكافرون مهما يكن لهم من أساليب أن يزحزحوا إيمانهم قيد شعرة ... وإن كان الحديث للشيوعيين فهم مرتبطون بمذهبهم ارتباط حياة مادية تعود عليهم بالبحبوحة في العيش والرفاهية في الدنيا التي اشتروها بآخِرتهم وبوطنهم وبكرامتهم وبضمائرهم ... فما هم إذَن بعائدين إلى الطريق الحق مهما يكن الحق واضحًا أمامهم، ومهما تكن الحجة التي تواجههم مني أو من غيري قوية لا ردَّ لها ولا جواب عليها.

والحق أنني أكتب هذا الذي أكتبه لشباب بريء لم يختَر طريقه بعدُ، وتتجاذبه نوازع متعارضة من أضواء الكلمات البرَّاقة التي يلفِّقها عليهم الشيوعيون من تقدُّمية ورفض للرجعية وخروج عن مألوف الناس من دين ووطنية وخلق ونوازع أخرى مما استقرَّ عليه المجتمع الشريف من قيم دينية وخلقية ووطنية.

إلى هؤلاء أسوق الحديث وحسبي هم!

لا عجب

تَنازعني — وأنا أمسك القلم — مذهبان أحدهما يغريني بالكتابة والآخَر يقصيني عنها، ولكلٍّ من المذهبين منطقه ورأيه وحُجته، فأما الأول فيرى أنني كتبت عن الأستاذ هيكل وهو قائم حي، فلا داعي هناك أن أكتب عنه، وقد انتحر بشهوة الشهرة والتكبُّر، وأصبح قتيلًا عدمًا لا وجود له. وأما الآخَر فيرى أن هناك أشياء تحتاج إلى تذكير الناس بها حتى لا يعجبوا مما بلغه الأستاذ هيكل وأمثاله من حضيض؛ فقد كان طريقهم الذي اختاروه لأنفسهم مؤدِّيًا بطبيعته إلى هذه النهاية التي لا نهاية غيرها، فهو طريق لا يتفرع ولا يزدوج، وإنما هو طريق واحد إلى نهاية واحدة، لا نهاية غيرها، واستقرَّ بي الأمر إلى ما ترى، ورحت أتساءل ولم يطُل بي التساؤل: كيف وقع الأستاذ هيكل في هذا المأزق؟ صحيح أن الشخصية العامة لا ينطبق عليها ما ينطبق على سائر الناس من وجوب ستر العيوب على الموتى، فلا نذكر إلا محاسنهم ... وصحيح أن التاريخ مزَّق الأستار عن العظماء، فذكر كلَّ ما يدور في حياتهم الخاصة من خير ومن شر، فلم يترك من خفاياهم خافية إلا ذكرها، ولكن المؤرخين حين صنعوا ذلك لم يكونوا معاصرين لهؤلاء العظماء، ولم يكتب أحد منهم عن هؤلاء الأشخاص في الفترة المتصلة بحياتهم إلا نقدًا أو مدحًا لأعمالهم العامة، أما التنقيب في شئونهم فلم يأتِ إلا بعد فترة طويلة من حياتهم، كأن الذين عاصروهم قد ماتوا أثناءها، وكان أبناؤهم قد أصبحوا أيضًا في ذمة التاريخ. أما في الزمن المعاصر لهؤلاء العظماء فما أحسب أن أحدًا صنع هذا دون أن يجد من الرأي العام استنكارًا ورفضًا واحتقارًا. وأذكر بعد وفاة الرئيس الأسبق أن تناوله مصري في الكويت بصورة بشعة، وكتب عن أهله وذويه بقلم عنيف، وكانت الحكومة الكويتية لا تحب الرئيس الأسبق، ولكنها رفضت هذا الذي كُتب، وأمرت المصري أن يرحل عنها في مدى أربع وعشرين ساعة من ظهور مقالته.

ومهما يكُن رأينا في الأستاذ هيكل فإننا لا نستطيع أن نجحد أنه إمامٌ علَّامة في فن النفاق، خبير لا يشق له غبار في ميدان الملق. ويكفيه ما ذكره هو في كتابه عن زعيمه حين كلفه أن يبحث له أمرًا وينهي إليه رأيه فيه، فلم يجد ما يقوله لزعيمه إلا جملته الخالدة في سجل الهوان: إنك أنت الزعيم الملهم، فاستلهم وحيك، واصنع ما يشير عليك به.

فكيف أخفق هذا الإخفاق هذه المرة وسقط هذا السقوط، وفتح على نفسه وعلى زعيمه بابًا لو ولجنا منه إليهما لزكمت منا الأنوف، ولكن ما كان لنا أن ندخل بابًا مثل هذا عفةً منا وبُعدًا عن المهاوي التي سار إليها الأستاذ هيكل بطبيعةٍ مواتية وسليقة غير مُبصِرة، ولكن حقيرة.

وبعد فالسادات راية خفَّاقة في سماء مصر والعالم العربي بل والعالم أجمع إلى أبد الآبدين؛ فقد صنع الحرب وهو مَن هيأ لجيش مصر الفرصة العبقرية التي يستردون كرامتهم فيها التي أهدرها الحُكم السابق على حُكم السادات في رمال سيناء وعلى هضاب التاريخ، وهو الذي أفاد من هذا النصر الفريد في حياة العرب الحديثة، فشق الخطوب والأهوال إلى سيناء، وكانت حياته هي الثمن، وكذلك أفذاذ التاريخ يقدمون حياتهم رخيصة هيِّنة في سبيل وطنهم وشعوبهم، والسادات من قبل نصره الحربي انتصر على نفسه، فلم يقبل أن يظل ممسكًا بأرواح الناس يصرفها كيف يشاء وكأنه شيطان مُسلَّط على بني قومه، فهو الذي أطلق الحريات في ١٥ مايو، وأصبح المصري — الذي كان قبل السادات مرعوبًا على حياتِه وعِرضِه ومالِه وكرامتِه — مطمئنًّا إلى الحياة، أمن سربه، وهدأ مضطربه، وقرَّ ثائر خوفه، يتطلَّع إلى الغد في أمل، وينام ليله في أمان، ويسعى في مناكبها في طمأنينة، في وجهه إشراق، وعلى فمه ابتسامة، وفي قلبه إيمان، وبهذا انتصر الجيش وقد تعلَّق بأسباب السماء، وأصبح الجنود البواسل الكرام يحسون أنهم عن أوطانهم يدافعون، وليس عن مطامع رئيسهم وآماله أن يصبح زعيمًا للعالم … أي عالم … أفريقيًّا كان هذا العالم أو عربيًّا.

وقد كان هيكل هو سوط سيده، وكان مُكبِّر الصوت الذي يُعلن عقوباته البعيدة عن كل عدل أو منطق، والبعيدة طبعًا عن أيِّ رحمة أو إنسانية؛ فالرحمة والإنسانية والمحبة مراتب فوق مرتبة العدل أو المنطق.

وكان هيكل هو اليأس القاتل، وجيشنا الباسل يُعِدُّ نفسه لمعركة العصر الحديث، حتى لقد أغرت كتاباته بعض الكتاب منا — الذين كانوا يظنون أنه مُطَّلِعٌ على بواطن الأمور — أن يكتبوا بيانهم يقولون للرئيس السادات: ما دامت الحرب بعيدة المنال فأعطِنا

حريتنا، ولم نكُن نعلم — وأنَّى لنا أن نعلم — أن الحرب قابَ قوسَين أو أدنى، والكاتب الذي ظللنا السنوات الطوال نبحث عن مصائرنا في ضباب صراحته قد أعلن أن دون الحرب أهوال لا يقوى عليها إلا الجن والشياطين، ونسي أن الله الذي خلق الجن العاصي خلق الجن الصالح المؤمن، فكان جيشنا منهم، وصاح: الله أكبر، وكان النصر الذي لم نكن نحن أصحاب البيان نتوقعه، فحين شهدناه لم نكابر ولم نجادل في الحق الذي لا شك فيه، واعترفنا جميعًا بعظمة السادات، لم يتخلف منا أحد، ولا حتى المأفون والمخدور الغارق في خمره ومورفينه.

فالأستاذ هيكل كان دائمًا الزغرودة والأغنية السعيدة الهانئة والأهزوجة الفرحانة الطروب في أحزاننا وأهوالنا وآلامنا ومآتمنا.

وكان البوم المشئوم، والغراب الناعق، وزعيم النائحات في أفراحنا الحقيقية التي تتمثل في عودة حريتنا، وفي انتصار جيشنا، وفي إفشاء السلام على ربوعنا وعودة سيناء إلى أرضنا وهي ملتقى كلام الله بنبيه موسى، ومراح يوسف الصديق، ومأمن مريم وعيسى، ومسرى سيدنا محمد ﷺ إلى المسجد الأقصى، وهي من بعد ومن قبل التاريخ أرض مصر. أترى أن مثل هذا يمكن أن يثير العجب فيما يفعل أو يقول؟ هيهات!

ويل للصِّغار من الصَّغار!

كم أرثي للصغار حين يتولون مناصب الكبار، أو كبار المناصب، فإنهم يُمسون في حالٍ تدعو إلى البكاء والإشفاق والأسى؛ فلا هم أصبحوا بمناصبهم كبارًا، ولا هم ظلوا فيما كانوا يؤدونه يتخفى صغارهم في ظلال الجهل بهم، وبُعدهم عن أماكن الصدارة هناك؛ حيث تتضح معالمهم جميعًا، ويضحي صغارهم معلنًا على ملأ الناس لا تتوارى منه خافية.

وصَلُوا إلى أماكنهم بكلِّ ما تأباه الكرامة، وما يتعفَّف أصحاب الكبرياء عن إتيانه، نافقوا فأوغلوا في النفاق، وجعلوا رءوسهم موطئًا للنعال، وقدموا من الخدمات ما يتأبى عن تقديمه كل مَن يملك بقيةً مِن إباء أو مسكة من إنسانية الإنسان.

وحين يصلون إلى ما سعوا إليه تبدأ بهم وبمَن يعاونهم الكارثة الكبرى، فهم يشعرون أن الكرسي الذي يجلسون إليه كله حراب، هي حراب الحق إذا اغتصب تنبت من تلقاء نفسها بسِرٍّ لا يدريه إلا الحق سبحانه وتعالى، فإنه هو العدل وهو الكبرياء وهو القيوم على عباده لا يبدل القول عنده وما هو بظلَّام للعبيد.

وحين تنبت هذه الحراب يصبح الجالس على الكرسي موضع شفقة من معاونيه، لا موضع احترام، وتصبح صورته مليئة ببثور الجروح المتخفلة عن الكرامة التي انتزعها من سحنته، وماء الحياء الذي أنضبه من وجهه، فينظر إليه العاملون معه نظرة احتقار تخترق رأسه، وإن صاحبها حديث فيه مديح أو فيه مهادنة، وقد يستطيع الناس الذين لا يحترفون النفاق أن يتحكموا في ألفاظهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يتحكموا في الشعاع الصادر من عيونهم. وكثيرًا ما يكون هذا الشعاع سليطًا جارحًا عنيفًا يجعل المديح الذي ينطق به صاحبه شرًّا من الذم الصريح، وأفدح وقعًا من السب الجهير.

مساكين هؤلاء الذين يجلسون إلى كراسي بلغوها بهذا النفاق؛ فهم لا يطالعون هذا الهزء، وتلك السخرية، وذلك الاحتقار من سائر الناس فحسب، وإلا لهان الأمر بعض

الهون، ولكنهم يطالعون هذا الهزء وتلك السخرية وذلك الاحتقار من أنفسهم، يواجهونها في صباح ومساء، وفي يقظة ونوم، وفي إفاقة وغيبوبة ... فإذا استطاعوا أن يتواروا عن الناس محتمين بكرسيهم، فكيف لهم أن يتواروا عن أنفسهم؟ وبماذا يحمون أنفسهم من أنفسهم؟

مساكين أولئك الذي يجلسون إلى كراسي بلغوها بهذا النفاق، فإن قراراتهم دائمًا مضطربة مثل اضطراب جلستهم على كراسيهم، فالكرسي واسع كبير، والجالس عليه ضئيل هزيل، فهو فيه موجود بلا وجود، كائن غير كائن، مقيم ونازح، حاضر وغائب، تائه في الكرسي، مضيع في منصبه.

وإن كان قراره يمسُّ أمورًا جسامًا فويل لهذه الأمور من قراره، فهو لا ينظر في شأنها بعين الباحث عن المصلحة العامة، ولا يستعين بأهل الرأي أو العلم أو الخبرة، فهو — لأنه صغير — يعتقد أن الرأي الأمثل هو رأيه، والعلم الأوفى هو علمه، والخبرة في جميع مناحي الحياة جمعت بعضها بعضًا لتتركز في كيانه. وهو يعتقد — وبئس ما يعتقد — أن ما فاته من المدارسة والدراسة والخبرة يعوِّضه هو بالاتهام والفهلوة، أليس قد استطاع بهما أن يصل إلى كرسيه حين نكص صاحب الرأي وصاحب العلم وصاحب الخبرة؟!

مساكين أولئك الذين يجلسون على كراسي بلغوها بهذا النفاق، فإنهم يدأبون في كراسيهم على مهاجمة الكبار الذين لا بد من وجودهم في كلٍّ منحى من مناحي الحياة، وإنه لأمر محتوم أن يكون من بين العاملين مع الصغار كبار توافروا على عملهم أو فنِّهم، ونأوا بذواتهم عن مواطن الأحذية وعن مواقع النفاق، والصغير مهما يكن مُغيَّب العقل، إلا إنه يعرف ما لدى الكبير من موهبة ومن علم ومن تمرُّس، فهو ينشب فيه أسنانه الحادة، يحاول جهده أن يمزقه، ولكن المسكين لا يعلم أن الكبير يظل كبيرًا، وأن لحم الكبير مُرٌّ، وأن قناته لا تنكسر، وأن أسنان الصغير مهما يكن ذا كرسي وسلطان لا بد أن تتساقط جميعًا جذاذًا مسحوقة مطحونة دون أن تصيب من الكبير جرحًا أو تخدش منه إصبعًا.

مساكين أولئك الذين يجلسون إلى كراسي بلغوها بالنفاق ... فهم يحاولون أن يرضوا كلَّ الصغار، ولكن الصغير لا يرضى، ومحاولة الإرضاء على حساب الحق تُغضب الجميع، ولا ترضي أحدًا، فهم بمحاولة الإرضاء هذه يثيرون على أنفسهم أحقاد الصغار أمثالهم، ولأحقاد الصغار على الصغار نيران لاهبة، وضراوة سفاحة وشرسة ذات سعار وضرام،

فإذا تسامى الكبار أن ينالوا من الصغار بألسنتهم أو بأفعالهم فإن الصغار لا يتسامون عن الصغار ولا عن الصغائر. وهكذا يسقط الصغير عن كرسيه بالصغار كما بلغه بالنفاق، وهو شر أنواع الصغار.

مساكين أولئك الذين يجلسون إلى كراسي بلغوها بالنفاق، فإن الذي يرخص كلمته مداهنًا متذلِّلًا منافقًا، يرخص ضميره لصًّا وسارقًا ومُختلِسًا، وإذا كان رب البيت بالدفِّ ضاربًا فشيمة المهازيل من أهل بيته كلهم الرقص، فهو حين يختلس يصدر قرارًا إداريًّا بإباحة السرقة لَمن يريد أن يسرق، فإن لم يساعد اللص أن يلص مال المرفق الذي يعمل به، فهو — بلا شك — يستر عليه، وإذا أرخى الرئيس على المرءوس الإغضاء فسدَ الأمر وصار فوضى، وأصبحت المرافق مباءات عفن، وأصبح مال المجموع نهبًا لأفرادٍ لا يقف بهم الطمع عند غاية، ولا ينتهي بهم الجشع إلى أمد.

ويلٌ لدولة يتولى فيها الصغار مناصب الكبار، أو كبار المناصب، فإن الفساد يفشو كنارٍ في هشيم، ولا ينجو منه إلا صاحب العزم الشديد والإيمان العميق بالله وبالقيم وبالمثل الرفيعة، وكم هو عسير أن يعصم الشريف نفسه إذا تكالبت حوله زمر المسعورين النَّهابين الآكلين السحت، والعابثين بكل ما هو نقي رفيع في الحياة. إنهم لن يحموا الشريف بينهم، فهم قاتلوه، أو هم على أحسن تقدير مبعدوه عن مسبعتهم ومراحِ نهبهم ومسارح عبثهم. وما دام الجالس في الكرسي الكبير صغيرًا، فكل شيء إذَن مباحٌ.

وبعدُ، فقد أوشك قولي على نهاية، وما أحب أن أضع القلم، وأترك مَن يقرأ هذا الكلام في ظلام بائس وفي عتمة أسيفة محزنة، فإن رئيس الدولة اليوم رجل كبير ورجل شريف، وفي وجوده ضياء أمل؛ لأنه هو الرأس في هذا البلد، وحين يصلح الرأس يمكن أن تنصلح الأعضاء جميعًا، ولكن الشر لا ينحسم في يومٍ وليلةٍ، والهدم يقع في لحظة، والبناء يقوم في وقت مديد يصل إلى سنوات.

فما لنا لا ندعو له وهو بالدعاء خليق أن يسدِّد الله خطاه، ويضيء له طريق النزاهة الذي اختاره لنفسه، والذي لا شك أنه لا يرضى بغيره لَمن يعملون معه ويعينونه على مسئوليته، وإنها لمسئولية فادحة لا يطيق حملها إلا المؤمنون.

كرامة ومال

هو رجل واسع الثراء، عميق الجهل، يُقال له في منطقته فلان بك. شاءت الظروف أن يكون مدينًا لنا نتيجة محاسبة — لا اقتراض بطبيعة الحال — بمبلغ مائتي جنيه، وكان المبلغ مستحقًّا لي ولإخوتي معي، فكان من المحتم أن أطالب به. وقد فعلت فراح يُراوغ ويُماطل ويُسوِّف ويؤجِّل حتى اضطُررتُ آخِرَ الأمر أن أقول له إنني سأقدِّم الكمبيالة للمحكمة، وكنت محاميًا في هذه الفترة من الزمان، وفهمَ البك بحُكم ممارسته للحياة معنى أن يقدم محامٍ كمبيالة للمحكمة. فإن الكمبيالة هي التي ستترافع، أما مرافعة المحامي فتكون بالصمت. وسارع البك قادمًا إليَّ وقد أيقن ألا سبيل له من التهرُّب الكامل، وبقي أن يماحك في المبلغ نفسه، وأخذتني الدهشة؛ فثروة الرجل باذخة، والمبلغ بالنسبة إليه على الأقل ضئيل لا يحتاج إلى هذه المماحكة، فاضطُررتُ آخِر الأمر إلى أن أقول له: «يا فلان بك، إن المال قد صُنع لنحفظ به كرامتنا بادئ ذي بدء». وإذا بالرجل يقول في بساطة وفي سليقة مواتية ودون أي تردد: «والله يا فلان إن مسألة الكرامة دي متلزمنيش ... مش تحت خبر ملهاش لزوم عندي نهائي، الكرامة دي متعبة، وأنا مش ناقص تعب». ولست أدري مدى الذهول الذي أصابني إلا أنني واثق أنه كان ذهولًا مفجعًا؛ فقد وجدتني دون أن أحس أمزِّق الكمبيالة، وألقي بها في وجهه وأقول: «وأنا متلزمنيش فلوس من واحد زيك حتى ولو كانت حقي وحق إخواتي»، وصاح الرجل: «الله يخليك ... الله يطول عمرك!»

وقام وخرج وهو في غاية السعادة أنه كسب المائتي جنيه، وخسر حياءه وماء وجهه، ولكن أكان ذا حياءٍ أو كان لوجهه ماء حتى يخسره؟ إنه لم يخسر شيئًا، فهو يعلن في بساطة أنه بلا كرامة، ومَن يعلن مثل هذا الإعلان لا يبقى له شيء يحافظ عليه إلا المال.

كانت هذه القصة في السنوات الأولى من الخمسينيات، وقد نسيتها فيما ينسى الإنسان، وإنما أذكرها كلما كرَّرَت الحياة أمام عيني تبجُّحًا أو سقوط الكرامة قريبًا مما أشهدنيه ذلك البك الثري. ولكني واثق أن الحياة لم تلقِ أمام عيني مثلًا له حتى كانت الأيام القليلة الماضية، وروى لي أحد الناشرين الشرفاء قصةً عن كاتب — كان يتعامل معه — أعادت إلى ذهني صورة تلك الجبلة التي بليت بمعاملتها منذ قرابة ثلاثين عامًا. قال الناشر إنه تعاقد مع الكاتب على نشر بعض كتبه، ودفع له مقدَّم العقد، وبدأ يطبع الكتب. ولكن الناشر فوجئ بأن الكاتب تعاقد على نفس الكتب مع ناشر آخَر في نفس الوقت، وقبض منه مقدَّم العقد، فقصد إلى الكاتب يسأله عن صحة ما بلغه، فأكَّد له الكاتب أن ما بلغه وقع فعلًا. أهذا يصح؟ وإذا بالكاتب التقدمي يقول له في هدوء وبساطة: عليك أن تعاملني على أني ابن ... بلا قيم وأخلاق. ورُوِّع الناشر مما يسمع، وقال له: وأنا لا أعامل ابن ... بلا قيم ولا أخلاق. وتركه وانصرف.

وهكذا وجدت في هذه القصة مهانة للإنسانية أعظم من تلك التي شهدتها من البك الثري، فإن الجهل قد يصلح مُبرِّرًا لهوان البك، ولكن ما المبرِّر للكاتب التقدُّمي المثقَّف وهو من ناحية الثراء موفور لا يحتاج إلى صبابة من مال، وإنما يرتكب هذا الذي يرتكبه؛ لأن نفسه لا ترى بأسًا أن يفعله.

وقد يجد الكاتب مَن يقول عنه مُدافِعًا إنه لا بأس عليه أن يكون بلا أخلاق ما دام يقدِّم فنًّا، وأن التاريخ ليذكر لنا كتَّابًا مثله وشعراء، ولكنهم قدَّموا فنًّا ما زال باقيًا على مرِّ العصور، وقد يذكر المُدافِع في هذا المضمار بودلير، وأوسكار، وأيلد، وأبا نواس، وغيرهم وغيرهم كثير، ولكن هذا الدفاع ينهار إذا ذكرنا العهد الذي كان يعيش فيه هؤلاء الكتَّاب، وما أصبح الكاتب يمثِّله اليوم. فلو أننا ألقينا نظرة على التاريخ لعرفنا الفارق البعيد بين مكانة الشاعر والفنان في ذلك الحين، وبين مكانته اليوم. فالشعراء في الأمة العربية كانوا يعيشون على جدوى الحكام والأثرياء، وكانوا يصطنعون المديح ليجدوا قوت يومهم وقوت عيالهم، فإذا لم يستجِب لهم الأمير، أو الثري، أو صاحب النفوذ، أوسعوه هجومًا وذمًّا، وحسبنا أن نذكر المتنبي وموقفه من كافور وغيره من حكام ذلك الزمان.

وفي فرنسا يكفي أن أذكر موقف الكونتيسة التي كانت تأوي لافونتين في بيتها ليجد ما يطعمه، ولكنها كانت تعيش تعتبره حلية تُباهي بوجودها في بيتها، كأنه قطعة أثاث نادرة أو تحفة فنية لا تزيد على صورة على الحائط أو علبة «نشوق» جميلة الصنع، حتى إنها سُئلت يومًا: مَن ستصحبين معك إلى مصيفك؟ فأجابت: لا أحد، كلبي ولافونتين.

وهكذا نزلت بالكاتب العبقري إلى مرتبة الكلاب.

وذلك عصر لم يكن الكُتَّاب فيه أصحاب فكر إلا من كان منهم قادرًا على مواجهة الحياة دون عون من صاحب ثراء أو صاحب سلطان.

أما العصر الحديث فقد رفع الكُتَّاب إلى مكانة سامقة في المجتمع، وأصبح المسرح والسينما والإذاعة والتليفزيون يدرُّون على الكُتَّاب في البلاد المتقدِّمة ما يجعلهم يعيشون عيشة رغدة وسعادة وبُلَهْنيَّة. أما في البلاد التي تماثل بلادنا فإن الكاتب يستطيع أن يكون مكفول الرزق في غير ثراءٍ، نعم، ولكن في غير حاجة أيضًا أن يبيع قلمه أو ضميره. ومهما يكُن الأمر فهو في غير حاجة أن يكون كما وصف ذلك الكاتب نفسه، بل إن كُتَّاب ذلك الزمان الذي كان الشعراء فيه يستجدون العيش، وكان الكُتَّاب فيه مقتنيات في قصور الأثرياء لم نسمع أن كاتبًا فيه أو شاعرًا وصف نفسه بهذا الذي يراه الكاتب الذي نروي قصته في نفسه. ولكن ما دام قد ارتأى أن هذه هي حقيقته فهو من هذه الناحية — ومن هذه الناحية فقط — أعلم الناس بنفسه، وإن كان في غير هذا أجهل الناس بنفسه، ما دام الأمر كذلك فإن لهذا الكاتب أن يصنع ما يشاء، فلا حساب عليه، وقديمًا قال الشاعر:

مَن يهُنْ يسهل الهوانُ عليه ما لجرحٍ بميِّتٍ إيلامُ

يا ليتها كانت إجازة

يظل الإنسان في الدول المتحضِّرة حائرًا حتى يصدر قانون يتصل بموضوع حيرته، فيجد فيه الهدى من الحيرة والطريق الأقوَم من الضلال والنور من بعد الظلمة، والوضوح من بعد الإبهام.

إلا في مصر وهي أعظم دولة قانونية في المنطقة صدر فيها القانون المدني وقانون المرافعات، فإذا أغلب الدول العربية تأخذهما بنصوصهما ليكونا هما القانونَين الناريَّين بين ربوعها في المدني والمرافعات، ويصل النقل إلى أقصى مداه حتى لتنقل إحدى الدول مادةً من قانون المرافعات تنص على أن محكمة القاهرة هي المختصة بنظر الدعوى، فإذا المشرِّع الذي ينقل القانون للدولة العربية يضع المادة كما هي، ويذكر أن محكمة القاهرة هي المختصة، ولم يتنبَّه الناقل أن يجعل المحكمة المختصة محكمة العاصمة للدولة التي ينقل لها القانون.

والدساتير في أغلب الدول العربية وضعَها مشرِّعون مصريون وعلماء القانون في أغلب الدول العربية مصريون. ولا يزال المحامون المصريون هم المرجع الأول والمترافعين في القضايا الكبرى في الدول العربية.

ومع كل هذا فإن الاضطراب القانوني الذي تعانيه مصر لا مثيل له في العالم الذي يسود مجتمعه قانون ما، فقد أصبحت القوانين باخرة تصدر في سهولة ويُسرٍ لم يكُن القانون يتصوَّرها في يوم من الأيام، وقد أدَّى هذا إلى صدور القوانين وهي لم تنضج بعدُ، فما تلبث عند الإعمال أن يتبين نقصها، فيعدل النقص بقانون ويعدل التعديل بقانون، وهكذا دواليك حتى أصبحت غابة القوانين اليوم مُستغلِقة على القاضي والمتقاضين جميعًا، فالقوانين اليوم حيرة من الهدى وضلال عن الطريق وظلمة من بعد نور، وإبهام من بعد وضوح.

وما هذا بعجيب، فحين ارتفع شعار القانون في إجازة كان شعارًا مُضحِكًا لا لأن القانون أُعطي إجازة، ولكن لأن القانون أصلًا لم يكُن موجودًا ليمنح إجازة، فالإجازة لا تُمنَح لمعدوم. وهكذا لم يكُن عجيبًا أن أسمع قصة عن أحد وزراء ذلك الزمان تأكَّدتُ من حقيقتها بحُكم مهنتي كقصَّاص وروائي، فهذه القصة كما سمعتها وكما سأرويها لكم ليس من شأنها أن تختلق اختلاقًا أو تصنع صنعًا، فإن لم تكن قد وقعت فعلًا فإنه يستحيل على العقل البشري أن يبتدعها. يقول وزير ذلك الزمان: إن مجلس الوزراء اجتمع في يوم من الأيام، وكان يرأسه رئيس جمهورية عهد الطغيان. وكان ضمن الوزراء وزير جديد يحضر أول جلسة في مجلس الوزراء.

وبدأ الرئيس يعطي أوامره بشأن مسألة مالية مُعيَّنة، فحين انتهى من إصدار الأوامر، وحين همَّ بأن يواصل حديثه في موضوع آخَر قاطعَه الوزير الجديد في براءة الأطفال.

– ولكن الذي تقوله سيادتكم مخالِف للقانون؟

ونظر إليه رئيس العهد في دهشة بالغة.

– ماذا تقول؟

وظنَّ الوزير في صدق المستشارين وأساتذة الجامعة.

إن الرئيس يريد أن يعرف القانون الذي يخالفه بأوامره، فبدأ يقول: المادة …

ولم يكمل؛ لأن رئيس العهد تحوَّل عنه والتفت إلى الوزراء الآخَرين في دهشة بالغة وما يزال، وقال لهم: بيقول إيه الجدع ده؟!

وسارع الوزراء يقولون في جُمَل يقاطع بعضها بعضًا: إن الوزير جديد ولا يعرف بعدُ ما يجري عليه العمل، وراح رئيس العهد يكمل أوامره حتى انتهى منها، وقفَ يتهيأ للانصراف حتى إذا بلغ الباب وقف والتفت مرة أخرى إلى الوزراء، وقال لهم: وغيَّروا القانون علشان أخينا ده يستريح.

وانصرف.

وقد كنا تعلمنا في كلية الحقوق أن القانون لا بد أن يتسم أولًا بالثبات والاستقرار، أما القوانين التي تتغير بأوامر الحاكم فهي ليست قوانين، وإنما هي أوامر كان يطلق عليها في عهد محمد علي ومن قبله فرمانات، ولعلها كلمة تركية أو هي كذلك على الأرجح، وفي ظل الأوامر والفرمانات ينعدم القانون تمامًا؛ لأن القانون إنما يصدر للكافة، وهو يقيِّد الحاكم قَدْر ما يقيِّد المحكومين، فإذا لم يكن كذلك فهو معدوم.

فالقانون إذَن لم يكن في إجازة؛ لأن الذي يخرج في إجازة إنما يخرج لمدة معلومة محدَّدة طالت هذه المدة أم قصرت، ولا بد قبل هذا أن يكون موجودًا وليس متلاشيًا بغير وجود، فهذه الإجازة إذَن لو وقعت لكانت أملًا؛ لأنها تعني في ثناياها أن الغائب قد يعود، ولا شك أن العودة للقتيل أمل عند أهله، وقد كان القانون آنذاك قتيلًا.

وكثرة القوانين طريقة من طرق قتل القانون، ولكن الذي لا شك فيه أن القوانين الأصلية لمصر عظيمة. ولا شك أيضًا أن هناك في حياة مصر أمورًا جدَّت بعد صدور هذه القوانين تحتاج إلى مواجهة، ولا شك أيضًا أن طبيعة الحياة بعد زوال الطغيان تحتاج إلى إعادة النظر، ولهذا أتمنى أن تهتم وزارة العدل بتكوين لجان من الفقهاء في القانون المدني وقانون المرافعات والقانون الجنائي وقوانين الإصلاح الزراعي؛ لتنظر في كل ما صدر من قوانين في الفترة الأخيرة، وتُوائِم بين هذه القوانين حتى لا يتعارض قانون مع قانون ولا مادة مع مادة، فإني أعتقد أن الحالة القانونية التي تواجهها القوانين اليوم تشبه الحالة التي نعانيها في المياه والكهرباء والتليفونات، وإن كان إصلاح هذه المرافق يحتاج إلى مال، فإن إصلاح الاضطراب القانوني لا يحتاج لغير الجدية فقط، ومع أنني أعتقد أنها عُملة أكثر صعوبة في الوجود من المال والعملة الصعبة، إلا أنها في نفس الوقت ليست مستحيلة على أولي العزم، والله يوفق العاملين الجادين إلى أحسن سبيل وأقومه.

من طوايا الحياة

ماذا أصاب قومي في مصر؟ أين الأيام الخضر؟ وأين عصير الحياة العذب؟ وأين ذلك الإشراق المضيء؟ وأين انطلاق الحديث ينتقل مرحًا من قلب إلى قلب، ومن صديق إلى صديق، ومن ابن إلى أبيه ومن أب إلى ابنه، ومن أخ إلى أخيه، بل أين المودة بين الزوج والزوجة، وأين بينهما الذكريات والآمال؟ حتى الحب الجديد أصبح لا يولد حرًّا كما كان حرًّا، ولا هو اليوم يعرف ذلك الاندفاع المتدفِّق لا يعوق دفاعه عائق ولا يجرؤ مانع أن يمسك عنانه. أين هو هادرًا صاخبًا. وأين هو جدول من غير سلسل المجرى، لؤلؤي المياه. يجري في ضفتَيه لأنه حب وكفى.

يا لشقاء الحب في وطني اليوم! الضفتان اليوم مال جامد حقير مسعور، وبحث عن مسكن بعد أن نضبت المساكن في بلدي. لا هدير للحب اليوم، بل هو معتقل في حبالٍ شديدةِ الأسر من التفكير المذعور من هول الغد، الفتى يبحث عن فتاة تكون ذات مال أو ذات عمل. ولم يعد الغني يبحث عن هواه وحبه في شريكة الحياة التي يريد الله أن تكون له في غَدِه سكينة لا مسكنًا ومودة لا منفعة.

أصبح يريدها الفتى ذات شقة لا ذات عاطفة وذات مال لا ذات رقة. ماذا صنعت بكِ الأيام يا بلدي؟ أين أنسام النيل وكانت رخاءً وسماحة؟ أين انطلاق الريف هناءةً وجمالًا؟! ما للريف اليوم قد كشر عن أنياب المال. وزمجر عن صوت العصر العنيف الصارم. كان الريف يماشي الأيام صفاءً ونعومة. فأصبح يقضم الأيام قضم الوحوش ويكسرها ويحطِّمها، فلا الناي يعزف في ريفنا، ولا الآذان تصغى إلى شدو الكروان والبلبل والعصفور، ولا النديم في ريفنا يعرف ندماء، ولا حلقات السمر في أمسيات الحقول تتحلَّق تضيئها ألسنة اللهب من نار كنار إبراهيم، فهي برد ودفء، وهي سلام لا يحرق، وإنما

يشيع في نفوس البشرية حوله طمأنينة وهناء وقدسية الأطناب إلا من وسادها وحب الله والناس وجميع المخلوقات عمادها وأركانها.

ماذا صنع بك الحقد يا ريفنا؟ أين أريجك المعطار؟ وأين أديمك المسماح؟ وأين أجواؤك التي ما عرفَت إلا الحب والنقاء والسعادة والصفاء؟ ماذا صنع الأمس باليوم؟! استطاع الحقد الآخذ الوبيل أن يعصف بجمالك هذا كله يا مصر.

ماذا صنع الأمس باليوم؟ وكيف استطاعت السخائم السود القاتمة أن تسحب الغيوم والسحائب الكشرة وتثبتها على أقطار بلدي وفي أنحاء سمائها التي كانت صافية مؤرجة بالعطر النقي والهواء الشريف. ماذا صنع الأمس باليوم؟! كيف استطاعت الكراهية والبغضاء الحقود أن تبدِّد أنوال الحب في نفوس المصريين، وقد كانت من قبلُ تنسج الهوى والتعاطف والرضا والكبرياء في غير صلف، والعزة في غير تعجرُف، والأمانة في غير افتعال، والترفُّع عن الدنايا، والبُعد عن الصغار، والعزوف عن الآثام في طبيعة مواتية وفي سجية نقية بيضاء.

أين أيام كان الابن يذوب طربًا إذا سمع صوت أبيه، وتسجح نفسه إذا سمع دعاء أمه؟ أين أيام كان الأخ للأخ عونًا، والأخت لأخيها ابتسامة هوى موصول لا تشوبه على الأيام شائبة؟! هل استطاعت سنوات الحقد العجفاء القاتمة السوداء أن تشق الابن عن أبيه وتنأى بالفتى عن دعاء أمه، وتجعل الأخ عدوًّا لدودًا، والأخت لأخيها ناهبة للميراث الذي كان إليه سيئول؟

أضعيف هو الحب؟ أم قوي هو الحقد؟ أم إن الأمر أدهى من ذلك وأمَرُّ؟!

أترى الخير والستر انسحبا من طوايا الحياة، ومن وشائج القربى ومن ثنيات الصداقة، فانكشف الوادي الأخضر الفسيح بالرضا عن غابة حمقاء مسعورة، رعاياها ذئاب بشرية، يأكل بعضها لحوم بعض في غير رحمة ولا شفقة؟ ومن أين وطيوف الإنسانية قد رحلت هي أيضًا مع سماحة الخير ومع كرامات الستر الحبيبة؟

لقد دخل الخوف بلدي في السنين العجاف، والخوف سريع مجتاح حين يدخل بلدًا، ثم هو عند الارتحال متلكئ وبطيء ... ثقيل الخُطى، والأمر بعد ذلك ليس ميسورًا، فهو كلما همَّ بالخروج من بلدي اجتاحها عاصف يعيد الخوف إلى الفرائص والذعر إلى النفوس، وهكذا استقرَّ الخوف في السنوات الأخيرة يطفئ شموع الأمن، ويحطِّم أركان السكينة.

تمثَّلَ يومًا في قرارات اقتصادية خرقاء دمَّرَت الاقتصاد بعد أن كان يوشك أن يستقر. وكان علاج هذه القرارات بطيئًا، فازداد الأمر سوءًا. وما زال الخوف يظل اقتصادنا حتى

اليوم. المال المصري يخشى الخروج إلى النشاط، والمال الأجنبي يخشى الدخول إلى مصر، والمصريون في الخارج حبسوا أموالهم في البلاد التي يعملون بها بعد أن كانت تنثال في رضًا وطمأنينة إلى المصارف المصرية، وتمثَّلَ الذعر في الأصوات الناعقة من الشيوعيين نشروها في كل مكان من أركان الإعلام فهم في الصحف القومية لهم صفحات ومقالات وصولات وجولات، هم في التليفزيون يوشكون أن يستولوا على الأركان الأدبية فيه، لم تفلت منهم إلا الأحاديث الدينية، وهم في الإذاعة يمرحون ويسرحون لهم برامج ثابتة، ولهم في كل حين حديث أو لقاء، والأجهزة جميعها حريصة على أن تسترضيهم حتى لأعلم أن بعض الأحاديث التي تناقش نظريتهم منعتها الإذاعة أن تخرج على الهواء، وليس انتشار الشيوعيين بالأمر الهين، فالأضرار الناتجة عنه أخطر مما يتصور المسئولون، فإنهم بصيحاتهم هذه لا يخيفون المؤمنين. فنحن واثقون من أن الشعب المصري لن يلتفت إليهم ولن يأبه بهم. ولكن الخوف كلَّ الخوف أن تخيف أصواتهم رءوس الأموال في خارج مصر سواء كانت مصرية أو أجنبية. فليس في العالم شيء أكثر جبنًا وحذرًا من المال. وهيهات لمالٍ يأتي إلى دولة يعلو فيها صوت الشيوعيين.

وهكذا يزداد الخوف تمكُّنًا في ربوع مصر، ويأبى أن ينقشع، ويتحدث الناس بصوت جهوري مرتفع، فالناس في بلادي لم تعُد تهمس، وليس خوفهم اليوم من الحاكم، فرئيسنا اليوم أعظم الرؤساء سماحةً وبعدًا عن العنف والجبروت، وإنما الناس تخاف من الأيام ومما يأتي به الغد.

ويزداد الخوف رسوخًا في نفوس الناس، ثم يقوى ويشتد فيما يراه أخيرًا من ظهور وجوه كانت اختفت يوم اختفى عنا عهد الطغيان والاعتداء على الأعراض والحريات والأنفس والأموال، فقد علت باخرة أصوات الفئة الباغية، وعاد إلى النعيق على نخل بلدي غربان الخراب والهزيمة الماحقة في كل الحروب تضيف على القمة الخائبة منها ٦٧ علامة لا يمحوها الزمن لعواقب الفساد والسرقات والاعتداء على إنسانية الإنسان وتحطيم الحرمات التي أمر الله أن يراعيها الحاكم في الرعية. عاد عواء الذئاب فأهاج جميع مكامن الخوف في نفوس المصريين. ويقول كاهنهم الأكبر للناس إنه بغيره لن يكون قرارٌ ما حكيمًا. وكأنه ما كفاه ما شارك فيه من قرارات كانت كلها خرابًا ما زالت مصر تعاني منه حتى يومنا هذا، وستظل تعاني منه لسنوات أخرى قادمة ... الله وحده يعلم عددها. هذه الجوقة التي تمثِّل السرقات بادئة من مجوهرات أسرة محمد علي إلى آخِر مَن صودرت أمواله، أو وضع تحت الحراسة والتي تمثل الهزائم المتوالية بدءًا من ٥٦، مرورًا بحرب

اليمن، إلى انفصال سوريا، إلى ٦٧، عادت إلى الظهور مع عازفها الأول، ولا يجد الناس مفزعًا إلا القرآن الكريم أمنهم عند الكريهة، ومفازتهم عند الذعر، وجنتهم عند الملمات.

ويذكرون أن هذا العهد جميعه لم يكن يؤمن بالله ولا باليوم الآخِر، وأنه ليس ممَّن قال عنهم الله سبحانه وتعالى «وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)»، وهم واثقون من كفر العهد ورجاله، ليس مما فعل العهد ورجاله بالبشر فحسب، وإنما بنص ما جاء صراحة في كتب كاتب العهد وكاهنه الأكبر. ويستجيب القرآن الكريم لفزع الناس، وكيف لا يستجيب لهم الله وهو قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه؟! وتأتي الآية (١١٨) من سورة آل عمران ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ صدق الله العظيم. والناس تعلم أن القائمين على الأمر اليوم من هؤلاء الذين يعقلون، وأن رئيسنا من هؤلاء الذين يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه.

وتتجمَّع هذه المشاعر جميعًا وتصخب في نفوس الشعب، ثم تنفجر فئة باغية جاهلة حمقاء تحرق أمن مصر وآمالها في جنون أرعن مأفون، وتبحث مصر عن السبب أو الدافع، فإذا هي تجده في جيوب الخونة المخابيل متمثِّلًا في مبالغ متشابهة ذات أرقام متتالية تصيح بأعلى صوت لها أن أعداء مصر في الخارج قد أعطَوا أوامرهم لأعداء مصر في الداخل، وشفعوا الأوامر بالأموال، واستغل هؤلاء وهؤلاء حرَّاس أمتنا والأمناء على الطمأنينة في بلادنا، واستغلوا جهلهم ولا أقول فقرهم وغباءهم، ولا أقول ضيقهم، وصنعوا منهم قذائف حرقت أول ما حرقت أمن مصر والثقة التي تمكنت أن تشيعها في نفوس العالم حولها.

وترفض مصر أن تصدق ما رفعوه من سبب لعدوانهم، فلو كان ما أعلنوه ذا صلة بأي نوع من الصدق لكان من الطبيعي أن تكون وسيلتهم — وهم رجال الأمن المُجنَّدون — متمثِّلة في شكوى يقدِّمونها أو تظلُّم يحمله عنهم قوَّادهم، أو أي سبيل آخَر يتفق مع الخلق. ولكنهم لم يفعلوا ذلك، وإنما أذهلتهم الأموال التي تسرَّبَت إليهم في خفية عن مصر، وأصبحوا قنابل تحرق مصر، مصرهم التي رضعوا لبانها وتفيَّئوا ظلها، والتي لا ملجأ لهم إلا حقولها ومغانيها، ولا مشرب لهم إلا نيلها إن تكن سنة قد زيدت على تجنيدهم وهم بها ضائقون، فإلى أين يريدون أن يتجهوا إذا لم تزد إن لم يتجهوا إلى مصر التي يحرقون؟! لا، ليس زيادة سنة — صحيحًا كان أمرها أو كان إشاعة — بالسبب الذي تقبله مصر، إنما هو الخيانة والرشوة، ومصر تتساءل اليوم: إن كان الذين قبلوا

الرشوة جهلاء حمقى فأين كان رؤساؤهم؟ وهو سؤال ضخم وكل إجابة عنه محزنة تمزِّق النفس حسرة وألمًا وذهولًا فاجعًا مدمِّرًا. والعجيب العجيب وفي نفس الوقت العظيم العظيم أن شعب مصر الذي يتحمل ما يتحمل من عناءٍ هو الذي يقمع الخونة، ويصدهم، ويرفض في إجماع منقطع النظير إجرامهم. إن هذا الشعب الطيب هو النبت الصالح الذي يخرج من الأرض الطيبة، وإن أرض مصر العريقة عراقة الزمن لا يمكن أن تنبت إلا هذا الشعب النبيل وصدق الشاعر:

وهل يُنبتُ الخطِّيَّ إلا وشِيجُهُ وتُزرَع إلا في منابتها النخلُ

الذكرى ذات نفع عميم

ليس في العالم أجمع نظام كامل، ولذلك قيل إن الديمقراطية هي أقل الأنظمة عيوبًا، فالديمقراطية هي أكثر الأنظمة إتاحة للحرية، وفي ظل الحرية تكثر الأخطاء، ونجد مَن يستغل الديمقراطية للسرقة والتحايُل على القانون والاستيلاء على الأموال بالباطل. وحين تخرج دولة ما من فترة دكتاتورية إلى فترة حرية تصبح هذه الجرائم بشعة المظهر أمام شعب لم يتعوَّد أن يسمع بمثلها في فترة الدكتاتورية. وينتهز أعداء الديمقراطية الفرصة فيجعلون هذه الجرائم وكأنها عجيبة من عجائب الزمن لا مثيل لها في الدول الأخرى ولا في التاريخ. والحقيقة أن هذه الجرائم تعرفها كل الدول الديمقراطية وتصدر أحكام القضاء مانعة رادعة، فتجعلها تتناقص مع الزمن حتى تصبح الحياة طبيعية.

ولم يحدث أن توقفت هذه الجرائم في أيِّ دولة، ولكن الذي يحدث أن تقل ويصبح شأنها شأن أي جريمة أخرى. ومن مظاهر الديمقراطية أن تكون الفرصة متاحة للجميع، فالديمقراطية تبيح لكل الناس أن يصبحوا أثرياء، ولهذا تدهش الدولة التي فرضت عليها الدكتاتورية حين تجد المال قد انفجر في شكل فاجر في أيدٍ لم تكن تعرفه إلا في صورة جنيهات ضئيلة تقيم الأود أو تكاد. وهؤلاء الأثرياء الجدد يتمثَّل الثراء عندهم في السيارة الفارهة وفي الطعام المرتفع السعر حتى ولو كانوا لا يسيغونه، وفي الملبس الفاخر حتى وإن غاب عنه الذوق. ويشهد الناس من شأن هؤلاء عجبًا، ولكن ما هي إلا سنوات قلائل حتى يتعوَّد الأثرياء الجدد على الثراء.

ويعرفوا أن قنوات الصرف الكريمة شيء آخَر تمامًا غير هذه السيارة، وذلك المأكل وهاته الملابس. ونحن اليوم نعيش فترة الانبهار بالانقلاب الذي أحدثته الديمقراطية في المجتمع. وينتهز الشيوعيون ودعاة القهر والانغلاق الفرصة، فتنهال أقلامهم وألسنتهم بألذع الشتائم على الانفتاح.

وهم طبعًا يدركون تمامًا أن هذا الانفتاح هو الذي أتاح لهم حرية التعبير العارمة التي يمارسونها، ويدركون أنهم في زمن الدكتاتورية كانوا يعدون أنفاسهم ويحبسون لهاثهم خشية أن يسمع الحاكم هذا اللهاث، فينزل بهم ما عرفوه كلَّ المعرفة من اعتداء على العرض والحياة والمال، وهذا طبعًا بعد أن أغلقت دونهم منافذ الحرية جميعًا.

هم يدركون هذا كلَّ الإدراك، ويدركون أنهم لو عادوا إلى الدكتاتورية فمصيرهم السجون التي احتوتهم حينًا كبيرًا من الدهر، ومآلهم النفي مُصفَّدين بالحديد إلى مجاهل الصحراء وفيافيها.

هم يدركون، ولكنهم يدركون أيضًا أن حاكم مصر اليوم رجل إذا قال فعل، وإذا وعد أنجز، وإذا واثق أوفى. وإذا عاهد صدق. وقد قال لا رجعة عن الديمقراطية، فما لهم إذَن ومذهبهم خسيس لا يستغلون الوعد الصادق، والعهد الوثيق، ويثيرون الدنيا، مهاجمين الانفتاح، وهم يعلمون كلَّ العلم أنهم حينئذٍ يهاجمون الحرية والديمقراطية. وما البأس عليهم فإنها هي الديمقراطية التي يريدون أن يهاجموها، وهي هي التي يبغضونها كلَّ البغض إذا هم كانوا الحاكمين، لكنهم يتغنون بها ويتناشدون بمآثرها إذا كانوا محكومين حتى يستمكنوا بها من الحُكم، ثم يقتلونها.

وهم حين يهاجمون الحرية يبحثون عن ألفاظ أخرى يهاجمونها بها، وهكذا اختاروا في مصر كلمة «الانفتاح» ليجعلوا منها سخريتهم، ويسدِّدوا إليها سهامهم، وقد يجاريهم في صدى أبواقهم المنتجون في السينما والكتَّاب الصغار في التليفزيون والمهازيل من أصحاب الأقلام الضائعة في الزحام، ويتعالى الضجيج ويزداد التصايح: تعالوا فانظروا ماذا صنع؟ ولو كان هؤلاء التابعون على أقل حظ من الذكاء لأدركوا أنهم أنفسهم يهاجمون أنفسهم، فالمنتجون بما يهاجمون يقفلون دون جيوبهم الثراء الذي انهمر عليهم، والكتاب بما يكتبون يغلقون دون أقلامهم الحرية التي تمرح فيها.

ولكنهم تبعوا وما فكَّروا، وقالوا وما تدبَّروا، وقلَّدوا وما عقلوا وصاحوا ولم يتذكروا، وإن الذكرى لذات نفع عميم لَمن كان ذا فهم لبيب. لو أنهم طرحوا أذهانهم إلى عهد الطغيان لوجدوا أن هذه السرقات كان يقوم بها الحكام وحدهم، ثم هي تتخفى في أثواب الرعب والفزع، فلا ينبس من يعرف أمرها بحرف عنها. وإذا سمع سامعٌ من شأنها همسةً نفضَ أذنه وغسلها خشيةَ أن يرى الزبانيةُ الباطشون على حوافي أذنه أثرًا ولو ضئيلًا مما سمعته هذه الآذان.

ولو أنهم طرحوا أمام أعينهم ذكريات الماضي لاستطاعوا اليوم ... واليوم أمان وحرية ... أن يصرخوا: أي داهية دهياء كانت تحيط بنا؟! وأين جواهر أسرة محمد علي؟ ما قصة

الحقيبة المليئة بالذهب؟ كيف كانت العُملة الصعبة تُلقى ذات اليمين وذات اليسار على ماسحي الأحذية ومُقبِّلي الأعتاب؟ ما قصة سيارات النقل التي كانت تحمل تلال الفرو والسجاجيد؟ ما شأن القصور الباذخة التي أُنشِئَت في القاهرة والإسكندرية؟ ما حديث الثورة المضادة وما انسكب سيولًا من أجلها إلى بنوك سويسرا؟ هذا بعض ما تصنعه الدكتاتورية، وبعض ما يستره الطغيان، إنه يؤمِّم السرقة لنفسه أول ما يؤمِّم.

فاصرخوا اليوم ما شئتم أن تصرخوا في عداء الانفتاح فلا ... لن نكون بعد اليوم للطغيان عبيدًا وإن رغمت منكم الأنوف؟!

والشيوعيون أقاموا من أنفسهم حرَّاسًا على القطاع العام، ولكنهم حرَّاس مُضحِكون لأن الدولة بكل أجهزتها لا تفكِّر مطلقًا في الاعتداء على القطاع العام، بل إن خبراء الاقتصاد من غير الشيوعيين يرون أن القطاع العام هو الركيزة الأساسية في اقتصاد مصر اليوم.

وكلُّ الدول ذات الاقتصاد الحر فيها قطاع عام، في أمريكا قطاع عام، وفي إنجلترا، وفي سويسرا، وفي فرنسا حتى قبل حكم ميتران.

فلا أحد يقف عدوًّا من القطاع العام إلا جهة واحدة هي التي تحاول أن تقضي عليه وتنسفه نسفًا، هذه الجهة هي القطاع العام ذاته، وإن الاحصائيات التي تقارن بين إنتاج القطاع العام الضخم وإنتاج القطاع الخاص الذي يُعتبَر ضئيلًا بالنسبة إليه لتدل دلالة قاطعة على أن القطاع العام يخرب القطاع العام بما لا يستطيع أن يصنعه به أي عدو شرس ذي أنياب وأضراس وسلاح. فإنتاج القطاع الخاص يكاد يماثل إنتاج القطاع العام، ولا صلاح لنا إلا بأن نعيد النظر في القوانين التي تحكم هذا الصرح الضخم في اقتصادنا، فلو اجتمع كل الخبراء الاقتصاديين في العالم لعجزوا أن يقيموا المنهار منه، إلا إذا كانت هناك قوانين عادلة تحكمه، فيها العقاب وفيها الثواب، وفيها العمالة على قَدْر العمل. أما إذا ظلَّ الأمر على ما هو عليه سائبًا بلا رقيب ولا حسيب، فلا أمل على الإطلاق.

لا أمل والعامل لا يعمل، وهو لن يعمل إلا إذا عرف أن العقاب سينزل به إذا أهمل، والثواب سيقدم إليه إذا أحسن عمله، ولا أمل والعمل الذي يستطيع أن يقوم به اثنان يُعيَّن له عشرات.

أما في الدولة الشيوعية فتصل عقوبة العامل المهمل إلى حدِّ الموت، مارَّةً بالنفي والفصل والتعذيب والسجن. وأما في الدول الرأسمالية فالفصل يقف بالمرصاد للعامل الذي لا يعمل. ونحن وحدنا وليس غيرنا الذين لا نعرف لنا نظامًا اقتصاديًّا واضح المعالم ذا نظرية معروفة الملامح. فلا نحن نأخذ بالنظام الاشتراكي، ولا نحن نأخذ بالنظام الحر،

ولا نحن عرفنا النسب السليمة للمزج بين النظريتين. تلك النسب التي عرفتها إنجلترا والسويد ويوجوسلافيا والنمسا وبولندا.

هناك دول تتخلص من السيطرة على مرافق الدولة وها نحن أولاء تطالعنا الأنباء أن اليابان باعت مصلحة التليفونات للقطاع الخاص، وقد تم هذا البيع بالقطع بعد موافقة كل المنظمات السياسية والاقتصادية.

وهناك دول تتوسع في السيطرة على مرافق الدولة مثل فرنسا. وكل دولة في العالم تعرف النظام الذي يحقِّق لها أكبر قَدْر من الانتعاش معتمدة دائمًا على نظريات ثابتة لا تحتمل الجدل.

إن زمن صناعة النظريات الجديدة قد مضى، والدول اليوم تمارس تطبيق النظريات الثابتة التي مكَّن لها التاريخ أن تصبح نظرية إلا نحن، فإننا نحاول — وهيهات لنا أن ننجح — أن نخلق نظرية اقتصادية ما أنزل الله بها من سلطان، ويعلو ضجيج الشيوعيين ويسيطرون على وسائل الإعلام بما لهم من تجمُّع، فيتوه الحق والنظام الأصلح في ضجيج الغوغاء والشعارات الجوفاء.

ونحن نخشى أن نقدم على الخطوات الصحيحة حذرًا من الصيحات المغرضة الرعناء، ولكن الأمل تبدو بشائره، ومطالع النور تلوح في الأفق، فهل تُرى آنَ لنا أن ننتظر شروق الحق وغروب الباطل؟ وما لنا لا نرجو وقد قال سبحانه وتعالى ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ صدق الله العظيم (سورة الرعد الآية ١٧).

الله خير الماكرين

توالت الخطابات إليَّ تُبارك ما كتبته عن الشيوعية والشيوعيين ... تحمد لي ما أذعته عن استيلائهم على وجه الإعلام المصري ... وإنه لشعور طيب أن يشعر الكاتب أن ما كتبه إنما هو تعبير عن مشاعر قومه، وأن كتابة خطاب تدل في ذاتها على التحمُّس والإصرار أن يُبلِغ القارئ رأيه إلى كاتبه.

ولكن أهم ما جاء في هذه الخطابات التي نشرت منها خطابًا واحدًا أن مصر أطلقت بما كتبت آهة كانت مكبوتة في جنبات شعبها، فقد رأوا سنوات الستينيات تعود بوجهها الكئيب البشع المليء بالبثور وبالرعب وبالجبروت وبالطغيان واستعباد الإنسان وتحطيم كل المعاني الرفيعة في الحياة.

وأنا حين أكتب ما أكتب لا أرهب الشيوعيين ولا أقول ولا أحفل ولا يعنيني أمرهم أقلَّ عناية. وإنما خشيتي أن يصبح وجه مصر أمام الداخل رعبًا، وينصَبَّ على الشعب الذي عانى ما عانى من ألوان الخسف رهب أن يعود الخسف إليه، ويصبح الإنسان المصري مرة أخرى يتلفت حواليه قبل أن يلتقط شهيقًا أو يخرج زفيرًا.

وأخشى — وتلك خشية وقعَت حقيقة — أن يمتنع أبناء مصر الذين كانوا قد آمنوا لبلادهم واطمأنوا إلى مصائر أموالهم فيها عن إرسال أموالهم إلى مصارف مصر كما كانوا يرسلون ... وكيف يأمنون أن يرسلوا هذه الأموال من الاضطراب الاقتصادي الذي وقع بمصر والذي باركه الشيوعيون وأحاطوه بألوان التهليل التي يجيدونها كلَّ الإجادة؟ حتى إذا انحسر الاضطراب اليوم وبدأ الاقتصاد المصري يعود إلى شيء من الطمأنينة ظلَّت أبواق الشيوعيين التي تملأ الصحف القومية والتي تسد أقطار التليفزيون وميكروفونات الإذاعة تثير الذعر والخوف في نفوس المصريين في الخارج، وتزجرهم أن يرسلوا أموالهم، فهم في بعدهم لن يعرفوا أن هذه الأصوات ما هي إلا عويل الشيوعيين وصراخهم مجتمعًا،

فيبدو كأنه صادر عن الكثرة، وهو في الحقيقة يمثل هذا الحزب الذي تقدَّم إلى الانتخابات، فلم ينَل مقعدًا واحدًا في مجلس شعب أو مجلس شورى ... والذين يعيشون في خارج مصر يقرءون الصحف، وبعضهم يسمع الإذاعة، وبعض منهم يشاهد التليفزيون. وهم يعرفون أحوال بلادهم من هذه الوسائل، فهم حين يقرءون الصحف فيجدون الصوت الشيوعي هو أعلاها نغمة، ويجدون الشيوعيين يطلون عليهم بوحشية من كل الصحف، وحين يسمعون الإذاعة فيجدون التمثيليات كثيرًا ما تنبعث عن الفكر الشيوعي المادي الدكتاتوري، وإذا رأوا التليفزيون، وشاهدوا التمثيليات التي أصبحت لا عمل لها إلا مهاجمة الحرية الاقتصادية، والدعوة الصريحة حينًا والمتكرِّرة أحيانًا إلى عهد الانغلاق والكبت والحبس والستار الحديدي، وهم يشاهدون تمثيلية تمجِّد باقتصاد مصر ... ولن يكون ذلك والشيوعيون هم أئمة الإعلام المصري، فإن هؤلاء لا أمل لهم إلا خراب مصر ... ساء ما يأملون، وكرِهَ الله ما يبيتون، وإنه سبحانه لماكرٌ بهم، فمحيط بما عليه يتآمرون، والله خير الماكرين.

هزيمة ٥٦ التي نال بها اليهود شرم الشيخ، ولا تذكر شيئًا عن نصر ٧٣ الذي رد إلى العرب — كلَّ العرب — كرامتهم، والتي قدَّم فيها الجيش المصري بعون الله القدير المتعالِ معجزة بعد أن انتهت عصور المعجزات، والتي دبَّر لها وقدَّر وأمر بها الزعيم الخالد على مدى الزمان أنور السادات، حين يشاهدون هذا يحبسون أموالهم عن أن تشارك في الاقتصاد المصري بعد أن كانوا سعداء غاية السعادة أن أموالهم أصبحت من العمد الأساسية في خير مصر، وفي سعيها أن تزيح ما تركه عهد القحط والخراب والمخابرات والاعتداء على الأموال العامة والخاصة، وعلى الأعراض العامة والخاصة أيضًا.

فالذي يصنعه الشيوعيون في الإعلام المصري ليس مجرَّد أصوات، إنما هو وجه مصر يخشاه مَن بداخلها، ويتصرف مَن بخارجها على أساسه.

فليس الأمر مجرَّد مقالة أو تمثيلية، فلو كان هذا كل ما ينتج عن صراخهم لهانَ الأمر، ولما استحقَّ منا أي تعليق.

فمصر لن تكون شيوعية أبدًا. مصر ذات الآلاف من السنوات هي مهد الإيمان، عرفت التوحيد أول مَن عرف، وكل معابد الفراعنة صروح لإيمان مصر بالسماء، وكل كنائس مصر صروح لإيمان الأقباط بالله والمسيح، وعشرات الألوف من المآذن في أرجاء مصر من أقصاها إلى أقصاها حصون شامخة شمَّاء تدمِّر الشيوعية، وتمزِّق أعلامها، وتمحق أفكارها، وتقضي على تدبيرها الخبيث.

فما أنا بخائف من هؤلاء المهازيل على مستقبل مصر في عقيدتها ودينها وديمقراطيتها، وإنما أنا أخشى أن تكون أصواتهم هذه تخريبًا لاقتصاد مصر في وقت لا تحتمل فيه مصر أي مساس باقتصادها.

أخشى أن يداخل المشروعات — التي أصبحت أساسًا في الاقتصاد المصري — نوع من القلق، فتقبض يدها عن التوسُّع والسعي إلى التقدُّم الفني والعلمي. ولا أمل لاقتصاد مصر في التقدُّم العلمي، والأخذ بآخِر ما وصلت إليه المباحث الجديدة المتطوِّرة في جميع فروع الحياة.

أخشى أن تهرب أموال تفكر في الدخول، وأخشى أن يشيع عن مصر أنها عادت دارًا لا يأمن فيها المال، ولا يطمئن في ربوعها المستثمرون.

وليعلم الجميع أن المستثمر إذا لم يربح فهو لن يقدِّم ماله، فقد يتبرَّع شخص بملايين الجنيهات، ولكن نفس الشخص لا يضيع مائة جنيه في مشروع صناعي أو تجاري لا يدرُّ عليه ربحًا.

ولست أدري لماذا تعمل كل التمثيليات في التليفزيون على ذم الربح، وأنه جريمة قتل، والمسلمون منهم وغير المسلمين يعلمون أن الربح في التجارة عمل مشروع تباركه جميع الأديان بلا استثناء.

من حق التمثيليات، بل من واجبها أن تهاجم الجشع ... أن ترفض الغش ... أن تمحق التحايل ... أن تشجب المنصب.

ولكن من واجبنا أيضًا أن نبارك الرزق الحلال ... من واجب الإعلام — بل واجبه الأول وقبل أيِّ شيء آخَر — أن يبث في نفوس العالم وفي نفوس المصريين الثقة بمصر.

هنداوي